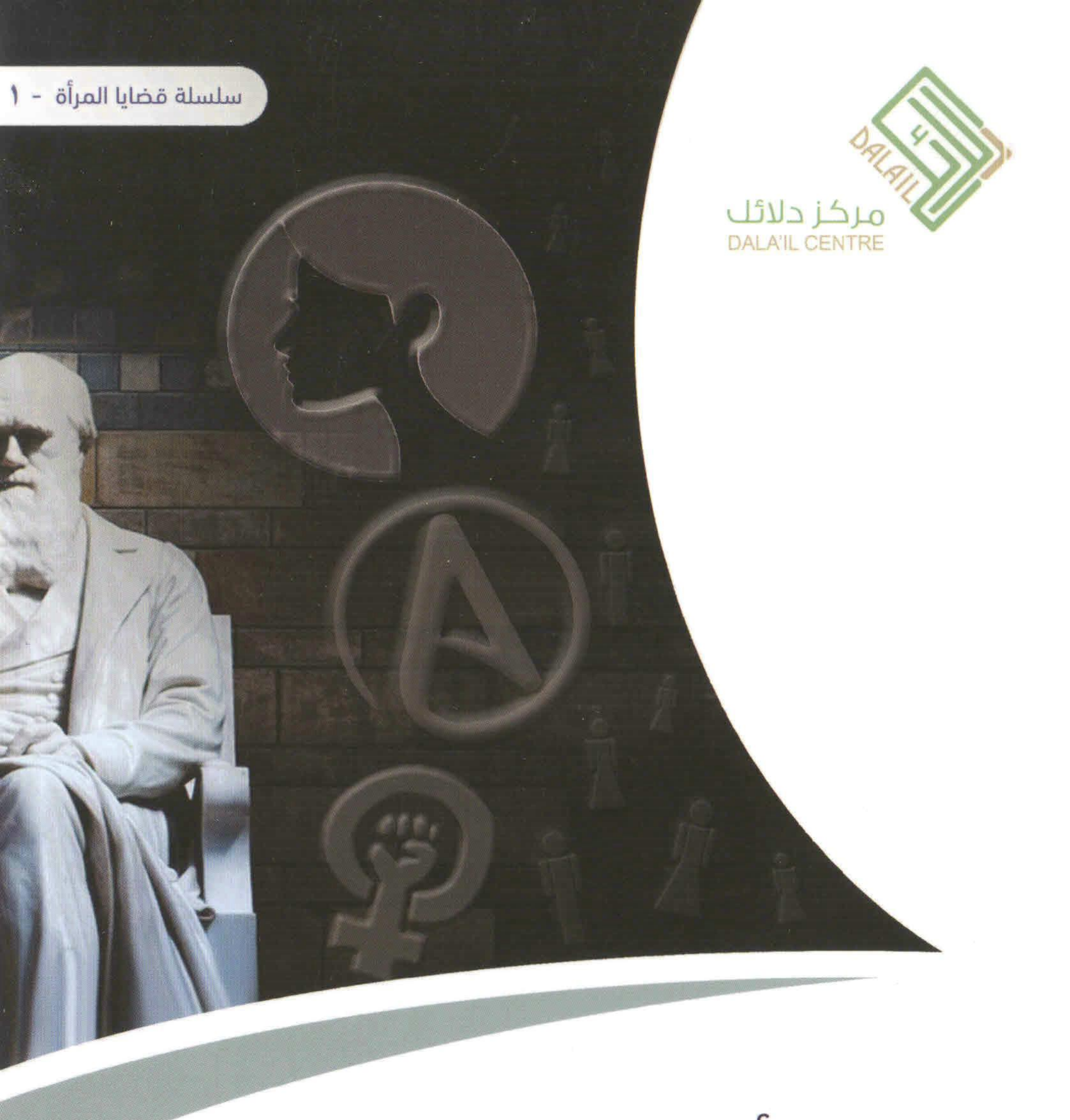


المرأة بين الداروينية والإلحاد

٤ مقالات عن المرأة في التعاليم الداروينية والمنهج المادي

د. جيري بيرغمان

مع مدخل للأستاذة : ملاك الجهني

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجهني، ملاك

المرأة بين الداروينية والإلحاد./ ملاك الجهنـي. ـ الريـاض، ١٤٣٨هـ

١١٣ص، ١٤×٢١سم

ردمك: ٩٧٨ـ٦٠٣ـ٩٠٨٨٢ـ٥ـ٧

١ـ المرأة في المجتمع ٢ـ تحرير المرأة أ. العنوان

ديوي ٣٠١.٤١٢ رقم الإيداع ١٤٣٨/٣٥٤٦

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ



Dalailcentre@gmail.com

الرياض - المملكة العربية السعودية

ص ب: ٩٩٧٧٤ الرمز البريدي ١١٦٢٥

Dalailcentre@

+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠

طبعت في الدار العربية للطباعة والنشر

المرأة بين الداروينية والإلحاد

٤ مقالات من ترجمة المركز

د. جيري بيرغمان

مع مدخل للأستاذة ملاك الجهني

تصدير :

إن الناظر في القضايا المعاصرة المطروحة علىٰ مختلف الساحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية والحقوقية، ليجد قضايا المرأة حاضرةً بقوة، ومن هنا كان ديننا الحنيف سباقًا إلىٰ إعطائها قدرها الذي تستحق من الأهمية، وسباقًا إلىٰ بيان حقوقها وما لها من مكانة خاصة في الإسلام لم تضاهيها مكانة من وقتها وإلىٰ اليوم.

ونحن إذ نسير علىٰ نفس الدرب من الاهتمام، فكانت هذه السلسلة الجديدة والمتميزة باسم (سلسلة المرأة)...

وفي هذا الكتاب نعرض بعض الرؤىٰ الغربية الحديثة في قضايا المرأة والنسوية والتي لها تعلق بالمنهج المادي للإلحاد والداروينية، حيث تكتب لنا الأستاذة ملاك الجهني مدخلا لهذه الرؤىٰ من وجهة نظر مختلفة، وهذه الرؤىٰ هي ترجمات لأربعة مقالات بحثية تصف بعض الجوانب الخفية للمرأة بين الداروينية والإلحاد.

مركز دلائل

***


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة...

لا شك أن المرأة كانت ولا زالت عنصراً من أهم عناصر أي مجتمع إنساني، فهي الأم والزوجة والأخت والابنة، هي الرعاية والعاطفة إذا بحث الذكر أو الرجل عنهما، وكذلك هي الجد والصبر والتحمل إذا اقتضت الحاجة، ورغم أنها الأضعف جسداً بحكم تكوينها الجسمي المناسب لوظائفها الطبيعية في الحياة مقارنة بالرجل، إلا أنه لم يتهمها أحد بنقصان قدراتها العقلية إذا اعتنت بها أو اعتنىٰ بها مُربيها أو وليها، فنرىٰ لها سمواً وتميزاً في بعض المجالات الفكرية والعلمية مثلها مثل الرجل تماماً بتمام أو زيادة. فإذا جئنا إلىٰ الدين، فلرب مؤمنة واحدة يوزن إيمانها بألف رجل أو يزيد، والقرآن والسنة تملأهم نصوص العدل والمساواة في الأجر والعمل للمحسن من الجنسين فيما أمره الله به، وذلك مثل قوله تعالىٰ:

﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

بل ولما غلب علىٰ اللغة العربية استخدام الخطاب المذكر للجنسين، أتت آيات لتذكر الناس بفضل النساء مثل الرجال تماماً

بتمام مثل قوله ﷻ:

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٣٥).

ورغم أن مكانة المرأة في الإسلام كانت النقلة النوعية الأبرز في تاريخ البشرية العملي في النظر إليها بعدل الله وتكريمه لها **(حتىٰ أن ملوك أوروبا كانوا يرسلون بناتهن ونسائهن لتعلم الفضل من المسلمين في الأندلس وغيرها كما فعل ملك إنجلترا جورج الثاني مع خليفة الأندلس هشام الثالث)**[1]، إلا أن البعض في العصر الحديث ومع غياب وتغييب العلم الديني عن أبناء الأمة عمداً: صار يستغل بعض النصوص الإسلامية للأسف -وبعد استقطاعها من سياقها أو معناها- ليحاول إيهام الناس باضطهاد المرأة في الإسلام وعدم العدل معها في

---

(١) حيث أرسل إليه في إشبيلية ابنة أخيه الأميرة دوبانت ورئيس ديوانه علىٰ رأس بعثة من ثماني عشرة فتاة من بنات الأمراء والأشراف لدراسة نظام الدولة والحكم وآداب السلوك الاسلامي وكل ما يؤدي إلىٰ تهذيب المرأة، وكان له رسالة شهيرة في ذلك ورد الخليفة عليها، وقد نقل الواقعة ابن عبد البر في كتابه الاستذكار، المجلد الأول، وفي كتاب (العرب عنصر السيادة في القرون الوسطىٰ) للمؤرخ الإنجليزي السير جون دوانبورت.

مواطن العدل وعدم المساواة معها في مواطن المساواة[1]. ذلك رغم أن المرأة في أوروبا كان يحق لزوجها أن يسحبها من رقبتها بحبل ليبيعها في السوق إلىٰ وقت قريب[2]. هذا غير الواقع المرير الذي تعيشه المرأة هناك إلىٰ اليوم من تحرش واعتداء بالضرب كما أثبتته وكالة الاتحاد الأوروبي للحقوق الأساسية في تقريرها الصادم[3] بعنوان:

Violence against Women: every day and everywhere

ومن ذلك الخداع مثلاً محاولة تصوير ميراث المرأة بأنه علىٰ النصف من الرجل دوماً وهو غير كذلك، إذ هناك حالات كثيرة تتساوىٰ مع الرجل وحالات أخرىٰ تزيد عليه!! ولتأكيد هذا الاستقطاع والتدليس؛ ففي نفس آية المواريث التي استدلوا بها من

---

(١) العدل يشمل المساواة، ولكن المساواة لا تشمل العدل بالضرورة، فأنت إذا أحضرت لأولادك الثلاثة الغلام والمراهق والشاب ثلاثة قمصان كل منهم علىٰ مقاسه، فأنت هنا عدلت بينهم بإعطاء كل منهم قميصاً. ويمكن وصف ذلك العطاء هنا من حيث الفعل نفسه بالمساواة، أما إذا أردت المساواة أن تصل إلىٰ إعطاء الثلاثة نفس الحجم من القميص، فأنت هنا ساويت في المُعطىٰ ولكنك لم تعدل بينهم ولم تساويهم في الفعل (لأن القمصان ستناسب واحداً فقط من الثلاثة في المقاس).

(٢) عُرف ذلك في إنجلترا حتىٰ أواخر القرن التاسع عشر فقط وهي ظاهرة «بيع الزوجة»!! نقرأ ذلك في الفقرة الرابعة من الرابط التالي:

http://www.buddybuddy.com/peters-1.html
From the 1690s to the 1870s, "wife sale" was common in rural and small-town England. To divorce his wife, a husband could present her with a rope around her neck in a public sale to another man.
The History of Marriage as an Institution.by Larry R. Peterson, Ph.D. © 1997, Larry R. Peterson

(3) http://fra.europa.eu/en/press-release/2014/violence-against-women-every-day-and-everywhere

سورة النساء نجد أنه كما ورد فيها قوله تعالىٰ:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ (النساء: ١١).

نجد فيها أيضاً:

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ﴾ (النساء:١١)!!

والسؤال:

لماذا لم يستوقفهم هنا مساواة نصيب الأب والأم بالسدس؟ أليسا رجلاً وامرأة كذلك؟ ذكراً وأنثىٰ؟ إنه في نفس الآية... فالله تعالىٰ كما يقسم الميراث بالنسبة لدرجة القرابة والعشرة بالميت، فهو يقسمه أيضاً مراعاة لحال كل وارث من إقباله علىٰ الحياة ومطالبها أو إدباره عنها، ولا شك أن مطالب الحياة من الابن الذكر هي أكثر من الابنة الأنثىٰ في شرع الله، حيث نجد الذكر مطالب بالمهر وتجهيز بيت الزوجية والنفقة علىٰ زوجته وأبنائه، في حين الابنة ليس لها من ذلك كله شيء، بل هي تتمتع بنصيبها كاملاً من الميراث دون أن يوجب الشرع عليها النفقة في أي شيء لا وهي في بيت أبيها ولا وهي في بيت زوجها، وهذا هو عدل الله...

فإذا أردنا أن نختتم بمثالٍ آخر علىٰ الخداع واستغلال الجهل بمعاني النصوص ومراميها لخداع الناس للأسف، فلنا النظر في حديثٍ شهيرٍ للنبي ﷺ يصف النساء فيه بأنهن **«ناقصات عقل ودين»**،

والحديث في الصحيح ومختصره قول رسول الله ﷺ:

«ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب للب الرجل الحازم من إحداكن فقيل يا رسول الله ما نقصان عقلها؟ قال: أليست شهادة المرأتين بشهادة رجل؟ قيل: يا رسول الله ما نقصان دينها؟ قال: أليست إذا حاضت لم تصل ولم تصم»؟

فالحديث كما نرىٰ لم يعمم بل خصص وردَّ في نفس السياق عن سبب وصفه لها بنقصان العقل والدين، **فأما نقصان دينها**: فقد حدده بنقصان أعمال العبادات، وهو نقصان في العمل للتخفيف عنها لمصلحتها الصحية، وليس فيه أي نقصان لأجرها، بل هي مثابة علىٰ تركها الصوم والصلاة في وقت حيضها ونفاسها وتأثم إذا فعلت العكس.

وأما بالنسبة إلىٰ نقصان عقلها: فالنبي ﷺ يشير إلىٰ أمر الديون والمعاملات المالية التي ذكرها الله في سورة البقرة في أطول آية في القرآن وهي آية الديْن، والتي جاء فيها:

﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

إذاً...

الأمر ليس علىٰ العموم، بل وهو غير ملزم للقاضي أيضاً في كل قضايا الناس، إذ للقاضي في بعض الأحيان أن يستشهد بشهادة رجل

واحد أو امرأة واحدة في حادثة ما إذا استقام له الأمر، ولكن الله تعالىٰ يرشدنا إلىٰ ما يسد به علينا مداخل الخطأ في تذكر الشهادة، وفارق كبير بين (الإشهاد) الذي أرشدنا الله إلىٰ فعله، وبين (الشهادة) نفسها.. وليس في ذلك انتقاص لنا، ولا انتقاص للمرأة علىٰ حساب الرجل وإلا: ما قولهم في اشتراط شاهدين من الرجال؟ هل في ذلك إعلان عدم الثقة بأحدهما؟ فمَن فهم ذلك سيفهم سبب موازنة شهادة الرجل بشهادتين من المرأة، حيث النساء أكثر عرضة للنسيان بطبيعتهن من الحمل والرضاعة التي تؤثر عليهن، كما أنهن أقل خبرة بالمعاملات والأمور المالية وتفاصيلها، ومن هنا تتعاضد شهادة المرأتين لحفظ الحقوق، أما إذا وُجدت امرأة واحدة متمرسة في تلك الأمور وعلىٰ دراية بها: فللقاضي وولي الأمر أن يقبل شهادتها منفردة، بل الشرع يقبل شهادتها منفردة في الأمور التي لا يطلع عليها إلا النساء مثل الولادة والرضاعة وإثبات البكارة والحيض وغيرها كما هو معلوم من الفقه، بل وروايتها للحديث تعد رواية لها ما للرجال من المكانة والحفظ والأخذ بها!

فخبر الشخص الواحد العدل الضابط الحافظ تكفي، والبينة للقاضي كما قلنا تقوم ولو بامرأة واحدة، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله في معنىٰ (البينة علىٰ المدعىٰ، واليمين علىٰ المدعىٰ عليه):

«إن البينة في الشرع، اسم لما يُبين الحق ويظهره، وهي تارة تكون أربعة شهود، وتارة ثلاثة، بالنص في بينة المفلس، وتارة شاهدين،

وشاهد واحد، وامرأة واحدة، وتكون نُكولاً (أي تهرب من أن يحلف)، ويمينًا، وخمسين يمينًا، أو أربعة أيمان، وتكون شاهد الحال، فقوله ﷺ: «البينة على المدعى»، أي عليه أن يظهر ما يُبين صحة دعواه، فإذا ظهر صدقه بطريق من الطرق حُكِم له». ولذلك قال بعدها بقليل:

«قلت: وليس في القرآن ما يقتضي أنه لا يُحكم إلا بشاهدين، أو شاهد وامرأتين، فإن الله سبحانه إنما أمر بذلك أصحاب الحقوق أن يحفظوا حقوقهم بهذا النِّصاب، ولم يأمر بذلك الحكام أن يحكموا به، فضلاً عن أن يكون قد أمرهم ألا يقضوا إلا بذلك. ولهذا يحكم الحاكم بالنكول، واليمين المردودة، والمرأة الواحدة، والنساء المنفردات لا رجل معهن وبعد هذا الضبط والتمييز والتحديد»[1].

ونقل كذلك قول شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن الحكمة في تعدد شهادة المرأة عن الرجل لعدم خبرتها وتصدرها غالباً لمجالس وأنواع هذه المعاملات:

«ولا ريب أن هذه الحكمة في التعدد هي في التحمل، فأما إذا عقلت المرأة، وحفظت وكانت ممن يوثق بدينها فإن المقصود حاصل بخبرها كما يحصل بأخبار الديانات، ولهذا تُقبل شهادتها وحدها في مواضع، ويُحكم بشهادة امرأتين ويمين الطالب في أصح القولين، وهو

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن قيم الجوزية، ص (٣٤). تحقيق محمد جميل غازي، طبعة القاهرة.

قول مالك وأحد الوجهين في مذهب أحمد»[1].

وهكذا كل شبهة أو محاولة الطعن باسم الإسلام في قدر المرأة: نجد من العلماء الأفاضل قديماً وحديثاً مَن فصلوا فيها وردوا عليها بالآيات والأحاديث الصحيحة لا الضعيفة ولا المكذوبة. والسؤال الآن هو: ماذا يحمله هذا الكتاب الذي بين أيدينا من جديد؟

بعيداً عن الكتابات التقليدية من وجهة النظر الدينية أو الإسلامية، فإننا قد جمعنا في هذا الكتاب أربعة مقالات من داخل النظرة المادية نفسها في الخارج (بشقيها الداروني والإلحادي): هي صادمة بحق لكل واهم بخصوص مكانة المرأة في المجتمعات المادية أو الإلحادية، حتىٰ أننا سنتساءل بعدها: كيف تتحالف أكثر الحركات النسوية feminism في الخارج مع الإلحاد والملاحدة والمتشككين والمشككين في الأديان: في حين أنه وفقاً لهذه المجتمعات نفسها فإن المرأة أقل شأناً بكثير مما تعيبه تلك الحركات علىٰ مكانة المرأة في الأديان؟!

الكلام قد يبدو غامضاً أو متناقضاً الآن، ولكن مع قراءة الأربعة مقالات المترجمة سيتضح الأمر عملياً بأقوال وممارسات علىٰ أرض الواقع.

فالمقال الأول: سيتحدث فيه الدكتور جيري بيرغمان عن

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، (١/ ٩٥)، طبعة بيروت ١٩٧٣م.

(تاريخ التدريس التطوري لدونية النساء)، حيث سيستعرض الكثير من النصوص الصادمة بدءًا من داروين ومروراً بكل مَن ساروا علىٰ خطاه وتشربوا نظرته المفرقة بين جنس الرجل وجنس المرأة تطورياً (أي أن الرجل تطور عقلياً وجسدياً بكثير عن المرأة). وسنترك لكم قراءة التفاصيل الشيقة في حينها. مع تذكيركم بسؤال واحد فقط وهو: ماذا يعني قولنا أن الرجل (أفضل) من المرأة مثلاً لأنه (أقوىٰ) منها جسدياً؟ علىٰ أي مقياس تم وضع (الأفضلية) هنا؟ هل هو مقياس جلب الطعام والسعي في الحياة؟ وذلك لأن العقل السليم يقتضي في المقابل أن تكون المرأة أيضاً (أفضل) من الرجل لأنها أكثر قدرة علىٰ رعاية الأطفال والصبر علىٰ حملهم وولادتهم والقيام علىٰ أمورهم!! إذن الأمر نسبي في النهاية. ولا معنىٰ للحديث عن تلك الأفضلية بالصورة الداروينية إلا كإفراز مجتمعي ذكوري كما يوضحه لنا الدكتور جيري بيرجمان بالمراجع والأدلة والتحليلات الموثقة. وهو نفس ما يرمي به الملحدون المؤمنين اليوم!!

أما المقال الثاني: فتتحدث فيه الشكوكية الملحدة روبيكا واطسن عن (التحرش في المؤتمرات الإلحادية)، وهو الجانب الخفي الذي لم يتحدث فيه الكثير من الملاحدة أو غيرهم وخاصة عن قرب كما عاشته روبيكا واطسن في قضية شهيرة كشفت الوجه الحقيقي للإلحاد والملحدين الذي طالما أثاروا نقطة أن الأديان هي التي تنظر للمرأة علىٰ أنها جسد وشهوة فقط، ففوجئت نتيجة مواقف بسيطة أنها وقعت

لأقبح أنواع التحرش والتهديدات الجنسية والاعتدائية مِن مَن؟ من ملحدين طالما عملت معهم ودافعت عن قضيتهم وسافرت المؤتمرات وجمعت النساء والتبرعات لهم!!

أما **المقال الثالث**: فبعنوان (من هيتشينز إلىٰ دوكينز: أين النساء في الإلحاد الجديد؟) للكاتبة كاتي إنجل هارت، حيث تستعرض فيه مكانة المرأة وسط الشخصيات الإلحادية الشهيرة عالمياً، وكيف أنه مهما بذلت من مجهود في الكتابة والتحرر الفكري والحقوقي والنشاط التشكيكي في الأديان فإنها لا تحظىٰ في النهاية بنفس الحيز الإعلامي والشهرة المجتمعية مثل الملاحدة الرجال، والفكرة الأساسية هنا التي تستحق الوقوف أمامها وتأملها هي: إبراز الكاتبة لنظرة استياء الرجال عمومًا لكون امرأة ما ملحدة!! حيث تستعرض تاريخ تلك النظرة قديمًا والتي وصلت إلىٰ اعتبارها أشد قبحًا من أن تكون المرأة قاتلة!!

وأما **المقال الرابع** والأخير: فهو بعنوان (لماذا لم تعيد مكاسب حقوق المرأة سعادة النساء؟!) للكاتبة أنا بيثريك، وفيه استعراض سريع لنتائج دراسات علىٰ حالات سعادة المرأة واستقرارها بين البيت والعمل والسعي خلف الأجور العالية، حيث كانت المفاجأة أن ذلك السعي لم يصحبه سعادة للمرأة وإنما صارت أقل سعادة من النساء اللاتي لم ينخرطن في ذلك الاتجاه.

المقال يعتمد بشكل أساسي علىٰ تفاوت أجور النساء والرجال

حتىٰ في المجال أو العمل الواحد، وهي مشكلة موجودة في الغرب ويوضع لها الإحصاءات السنوية للمقارنة ولشحذ الحركات النسوية في الخارج للمطالبة بالمساواة في هذا الاتجاه. وهنا تتباين نظرة الإسلام مع غيره في عدالة تناول موضوع الأجر وتناسبه مع العمل بغض النظر عن جنس العامل. ولكن للأسف حتىٰ هذه النظرة السلبية لها ما يدعمها من بعض ممارسات الظلم في بلاد المسلمين. فحسن التنويه إلىٰ كون ذلك ليس من تقريرات الإسلام.

بقيت كلمة أخيرة.... وهي أننا علىٰ بُعد لحظات الآن من قراءة (مدخل عن النسوية في المنهج المادي) تقدمه لنا الأستاذة ملاك الجهني بقلم حصيف وخبير في هذا المجال الذي تتبعت كتاباته ونشاطاته لسنوات، فجاء أسلوبها في العرض قوياً يناسب المختصين، ولكنه مفيد كذلك للمبتدئين في هذا المجال أو الذين سيقرأون فيه لأول مرة، ذلك أنها تستعرض باختصار أبرز ملامح نشأة النسوية في الخارج، وأبرز مراحلها، وخصوصاً علىٰ طريق المنهج الداروينى المادي الإلحادي.

الناشر

* * *

مدخل عن النسوية في المنهج المادي...

«تنويعات النظرية والممارسة النسويتين يجب أن تُدخل في حسبانها أنها مثلها مثل أي ممارسة استطرادية أخرىٰ، إنما يحدّدها ويكوّنها حقل إنتاجها، حتىٰ عندما تحدّده وتكوّنه»[1].

ميدا يينغو غلو

مشكلة المرأة: السياق والاستيعاب:

تبنَّت النسوية (feminism) مشكلة المرأة في المجتمع الإنساني. وتمَّ إلحاق كل نتاج نسائي فردي، فكري أو أدبي أو تاريخي أو فلسفي بالموروث النسوي، وصُنِّفت تلك الأعمال بوصفها أعمالاً نسوية ما دامت تعبر عن موقف تجاه المرأة وقضاياها، حتىٰ وإن كان ذلك النتاج سابقًا علىٰ بروز النسوية في العصر الحديث أو لم تُعَرِّف صاحباته أنفسهن بهذا الوصف. ولم تكن النسوية فكرة مجردة حول المساواة، كما لم تكن النسوية مجرد حركة اجتماعية لنصرة حقوق

---

(١) استيهامات استعمارية: نحو قراءة نسوية للاستشراق لميدا يينغو غلو، ترجمة: عدنان حسن، الرحبة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٤م، ص (١٤٤).

المرأة، بل جمعت النسوية بين الحراك الاجتماعي والسياسي، وتشعبت النسوية إلىٰ تيارات فكرية أو نسويات مختلفة، وامتدت وتوسعت في الجانب التنظيري الفلسفي، واصطبغت بصبغة أكاديمية بدءًا من مطلع السبعينات، وطرحت منظراتها رؤىٰ شكَّلت بمجملها رؤية أنثوية للوجود من منظار الحداثة الغربية علىٰ اختلاف فلسفاتها.

ورغم أن الحركة النسوية بالدرجة الأولىٰ حركة علمانية تنظر للأديان في أفضل الأحوال بوصفها مؤسسات تراتبية تحتل المرأة فيها المرتبة الأدنىٰ، هذا إن لم تحمل النسويات الأديان مسؤولية اضطهاد المرأة بصفة مباشرة. رغم ذلك فقد نُسجت الخيوط الأولىٰ لأدبيات السؤال النسوي داخل الدين، وإن لم تنتج تلك المحاولات المبكرة تيارًا فكريًا أو حركة نسوية دينية في وقت كان سَيْر التيار العام فيه معاكسًا للدين. لكن لم تلبث النسوية الدينية أن برزت في وقت متأخر نسبيًا في البلدان التي لم تشهد صراعًا مريرًا ضد الدين علىٰ غرار البلدان الأوروبية التي تشكلت فيها حركات نسويات متطرفة، وكان هذا من أبرز ما توافر من ظروف شجعت نشوء النسوية الدينية في الولايات المتحدة الأمريكية، بينما لم تشهد فرنسا مثلاً نشوء هذا النوع من النسوية رغم قوة الحضور النسوي فيها[1].

---

(١) انظر: بواكير النسوية- لستيفاني هودجسون رايت، دراسة نشرت في كتاب (النسوية وما بعد النسوية: دراسات ومعجم نقدي)، من تحرير: سارة جامبل، ترجمة: هدىٰ الصدة، المجلس الأعلىٰ للثقافة، ط١، ٢٠٠٢م، ص (٢٤-٢٥)، والنسوية=

ومن المنظور النسوي الديني تقول روز ماري روثر، وهي رائدة ما يعرف بتيار (اللاهوت النسوي) في المسيحية الكاثوليكية، ومؤلفة كتاب (التمييز الجنسي والكلام عن الله God Talk:Toward a Feminist Theology): **«من الناحية الدينية، إن كل ما يقلل أو ينفي الإنسانية الكاملة عن النساء لا يجب أن يُفترض أنه يعكس أمرًا إلهيًا»**[1].

ويمكن القول أن هذه العبارة تمثل الإطار النظري للنسوية الدينية، والتي استندت إليه التأويلات النسوية للدين.

ورغم كل محاولات التأويل لتطويع الأديان لمبادئ النسوية فقد أعلنت بعض النسويات المسيحيات في حركة الإصلاح النسوية المسيحية يأسهن من القضاء على **النظام الأبوي**[2] في المسيحية من داخلها، وعمّمن الحكم نفسه على محاولات الإصلاح في بقية الأديان السماوية، وانشقّت أولئك النسويات عن التيار الإصلاحي للمسيحية

=والدراسات الدينية: ترجمات نسوية، تحرير: أميمة أبوبكر،ترجمة: رندة أبو بكر، ط١، ٢٠١٢م، مؤسسة المرأة والذاكرة-القاهرة، ص (١٢-١٦)، وحقوق المرأة- لكريستين.إيه. لونارديني، ترجمة: أسعد أبو لبدة، دار البشير، ط١، ٢٠٠٤م، ص (٢٤-٢٥).

(١) النسوية والدراسات الدينية، ص (٩).

(٢) عُرِّفَ النظام (البطريركي) الأبوي بأنه: «نظام يسوده الرجل، وتُفرض فيه السلطة من خلال المؤسسات الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والدينية» النسوية وما بعد النسوية، المعجم النقدي، ص (٤٤١)، وانظر: النظريات البطريركية - لليند ساي جيرمان، مركز الدراسات الاشتراكية، ص (٦-٨).

لينشئن تيارًا آخر مثلته كارول كريست منذ السبعينات الميلادية، وليبدأن العمل من ثمَّ علىٰ تأسيس ديانة وثنية جديدة تستلهم العنصر الأنثوي في الأساطير الأنثوية القديمة الممثلة لموروث ما قبل اليهودية والمسيحية. وعرفت هذه الحركة بـ(Wicca) وتعني (تملُّك الحكمة) بالإنجليزية القديمة، وقد تطورت دلالات الكلمة لتعني ساحر أو ساحرة. واختيار هذه الكلمة لم يكن اختيارًا غير واع بدلالاتها بل يعيها ويهدف لما تهدف إليه الديانة الجديدة، وهو قلب أو عكس الإيحاءات المضمرة في معنىٰ الساحرة (witch) في التراث الأوروبي المسيحي والتي تتصل بالشر والسحر الأسود وعبادة الشيطان، والعودة عكسيًا بهذه الكلمة عبر الزمن لتعني (الحكمة الأنثوية) ومصدرها الإلهة الأنثىٰ، ومن هنا كان وصف الديانة بحركة الإلهة الأنثىٰ (goddess movement).

وأول كتاب طرح هذه الفكرة وأسس لها نظريًا مستخدمًا ومبررًا الإشارة إلىٰ الله برموز وصور أنثوية خالصة، هو كتاب (بزوغ روح المرأة: قراءات نسوية في الدين) من تحرير كارول كريست وعالمة الدين اليهودية جوديث بلاسكو. وقد قدمت المحررتان في كتابهما نماذج لطقوس روحانية أنثوية متطورة قائمة علىٰ دمج العنصر المؤنث[1].

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص (١٤-١٥).

والقارئ لكتابات كارول كريست وبخاصة كتابها (الصوفية النسوية: الغوص عميقًا والصعود إلىٰ السطح) يتبين ردة فعلها تجاه المسيحية ويلمس الجانب الاجتماعي فيه، فقد ذكرت في كتابها كيف كانت التفرقة في كلية يال (Yale) الدينية سببًا في ارتدادها عن المسيحية، فتقول: «**وبعد أربع سنوات من الدراسة في كلية يال الدينية بدأت في التحقق من أنني كنت شيئًا شاذًا في عالم الرجال، وبالتأكيد أن خبرتي قد تعمقت، لأن الدراسات الدينية قد احتلها الرجال بالكامل تقريبًا ولأن (يال) بينما هي تقبل التحاق عدد قليل من النساء علىٰ مستوىٰ التخرج، إلا أنها ما زالت تحافظ علىٰ تقاليدها العريقة علىٰ مرِّ القرون الطويلة كمدرسة للسادة الأفاضل**»[1].

وتضيف: «**وخلال سنوات دراستي هناك كان رئيس يال يلقي بيانه المشين من أن يال لن تقبل النساء في مرحلة ما قبل التخرج لأن مهمتها في تعليم ألف رجل قائد كل سنة. لكنني لم أكن أطمح في الحصول علىٰ هذه الخبرة، فأنا أتيت لكي أدرس الحقيقة ولا دخل للحقيقة بالنوع أو الجنوسة علىٰ ما أعتقد. إنني كنت واحد من امرأتين (من ضمن ما يقرب من مائة طالب) في برنامج التخرج الذي ما كان ينبغي له أن يفرق بيننا في شيء ولدهشتي علمت أن هناك فرقًا ضخمًا... لقد كانت تعليقاتي في الفصل تلقىٰ التجاهل... وبدأت**

(١) الصوفية النسوية: الغوص عميقًا والصعود إلىٰ السطح، ترجمة: مصطفىٰ محمود، آفاق للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٦م، ص (٢٤).

بالتدريج أتساءل عما إذا كان لي منظور مختلف في اللاهوت لأنني امرأة»[1].

ولا نزال نلتقط مثل هذه الإشارات والتصريحات لدى العديد من النسويات ملحدات وغير ملحدات، كالنسوية الهولندية الملحدة ذات الأصل الصومالي أيان هرسي، وإن حاولت بعضهن إنكار هذا الأثر في إلحادها[2].

ويبقى أن بحث المرأة عن موطئ قدم داخل المؤسسات الاجتماعية، ومحاولة تقويض النظام الاجتماعي الحاضن للممارسات المسيئة للمرأة والثقافة المقللة من شأنها، كان مما دفع بعضهن نحو الإلحاد بتدرجاته وصوره المختلفة ممثلاً بإنكار الخالق والبحث عن آلهة جديدة أو إنكار المطلق جملة وتفصيلاً.

ما يحمل المتابع على التساؤل هل وجدت الملحدات لأسباب اجتماعية أو حتى أسباب علمية صرفة المكانة التي يتطلعن إليها في الفكر الإلحادي، والمجتمعات الحاضنة لهذا الفكر؟ وهل تم تقويض النظام الأبوي المفترض بمعاداة الدين ومحاولات تقويضه؟

---

(١) المرجع السابق، ص (٢٥).

(٢) انظر: خارج السرب: بحث في النسوية الإسلامية الرافضة وإغراءات الحرية، فهمي جدعان، الشبكة العربية للنشر، ط١، ٢٠١٠م، ص (١٢٤-١٣٤).

الرؤية الكونية:

مفهوم الرؤية الكونية أو النظرة إلىٰ العالم مفهوم شمولي، وهو من المفاهيم المتداولة في الفكر الغربي، ويعبر المفهوم عن الكيفية التي ندرك بها العالم، استنادًا إلىٰ الدين أو الفلسفة أو العلم. ولا تحمل هذه الرؤية أو النظرة معنىٰ ما لم تقدم كشفًا وإيضاحًا للمعنىٰ والغرض من العالم، أو هي كما يقول توماس بيري «**تصور حضارة ما للعالم، أي الإطار الكوني الذي يفهم وفقًا له كل شيء ويقيِّم**»[1].

والرؤية أو النظرة الكونية الغربية استندت للمنظور التطوري المادي، وحتىٰ بعد طغيان النسبية وتصدع العقلانية فيما بعد الحداثة، ومنازعة المنظور الجديد للعلم في الغرب للرؤية السائدة، بقي المنظور التطوري مؤثرًا في الأبنية الفكرية القائمة عليه[2]، «**فالنظرة الكونية هي من الحيوية بحيث لا يُستطاع تغييرها بسهولة أو بسرعة، حتىٰ لو توافرت أدلة قاهرة تدعو لإحداث تغيير. وما يحدث بدلاً من ذلك دائمًا هو نشوء نزعة إلىٰ تطويع المعارف الجديدة بإلباسها قسرًا**

---

(١) العلم في منظوره الجديد- لروبرت.م.أغروس وجورج.ن.ستانسيو، ترجمة: كمال خلايلي، سلسلة عالم المعرفة، العدد: (١٣٤)، فبراير ١٩٨٩م، ص (١١)، وانظر: العلم والنظرة العربية إلىٰ العالم- لسمير أبوزيد، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٩م، ص (١٩-٢٠).

(٢) انظر: العلم في منظوره الجديد، ص (١٧)، والتصورات العلمية للعالم: قضايا واتجاهات في فلسفة العلم المعاصرة- ليوسف تيبس، دار الروافد الثقافية، ط١، ٢٠١٤م، ص (٤٠).

ثوب النظرة القديمة»[1].

ورغم الطابع الثوري النسوي فلم تنفك الرؤىٰ النسوية عن الرؤية الكونية الغربية، وبقيت الرؤىٰ النسوية محكومة إجمالاً بالنزعة الإنسانوية الفردية، والعقلانية، ومبدأ الحركة وقانون التطور العام في الوجود.

وفي مختلف الحالات تبنَّت النسويات الرواية الغربية للتاريخ، وأيًا كان الجدل الدائر حول القراءة التفسيرية للتاريخ فلم تقدم النسويات نظرية بديلة أو يقوِّضن النظرية القائمة، وأنىٰ كانت تفسيراتهن واختياراتهن البديلة فقد بقين محكومات بالرؤية المنبثقة عنها، وإنما هي رواية بمقابل رواية لا تخرج أيٌ منها عن النظرية التطورية.

فهذه المؤرخة النسوية البارزة غيردا ليرنر في كتابها (نشأة النظام الأبوي) الحائز علىٰ جائزة الجمعية التاريخية الأمريكية سنة ١٩٨٦م، تصرح بالمستند العلمي لدونية المرأة فتقول: **«حين أُضعفت الحجج الدينية في القرن التاسع عشر لدونية المرأة، صار التفسير التقليدي لدونيتها علميًا»**[2].

ورغم تصريحها بأن النظريات الداروينية عززت الوضع المتدني

---

(١) العلم في منظوره الجديد، ص (١٧).

(٢) نشأة النظام الأبوي، ترجمة: أسامة إسبر، المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠١٣م، ص (٤٩).

للمرأة، لكنها بقيت حبيسة هذه الرؤية التطورية وكل ما هنالك أنها اقترحت البحث عن احتمالات جديدة، بقولها: «**وبما أنه من المرجح جدًا أننا لن نعرف أبدًا ما حدث تمامًا فنحن مجبرون أن نتأمل فيما يمكن أنه كان محتملاً**»[1].

إن غيردا ليرنر تضع نفسها خلف قضبان التأويل التطوري الذي وصفت الرضوخ لقيوده التأويلية بالسِّجن بقولها: «**حين نفكر بماضي النساء السابق للتاريخ فإننا نسجن أنفسنا في نظام تأويلي متمركز ذكريًا، بحيث إن النموذج البديل الوحيد الذي يأتي بشكل جاهز إلىٰ الذهن هو العكس: إذا لم يكن هناك نظام أبوي فهناك نظام أمومي**»[2].

ويعد كتاب المؤرخة النسوية ريان إيسلر (الكأس المقدسة وحد السكين) -الصادر سنة ١٩٨٧م- من أهم الأعمال المرجعية في هذا الباب، وقد أشارت المؤلفة في كتابها إلىٰ الجدل الدائر في الغرب حول وجود نظام أمومي وعلَّقت عليه بمثل ما علقت غيردا ليرنر قائلة: «**ثقافتنا تتميز بمبدأ (إذا لم يكن هذا فسيكون ذاك)، وهو مبدأ حذر الفلاسفة القدماء من أنه قد يؤدي لقراءة مغلوطة حتىٰ لأبسط الوقائع**»[3].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق، ص (٨٤).

(٣) الكأس المقدسة وحد السكين، ترجمة: فؤاد سروجي، الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٧م، ص (٧٠).

وقد حاولت إيسلر صياغة نظرية تقف بواسطتها في منتصف المسافة بين الرافضين لفرضية النظام الأمومي وبين المتمسكين بهذه الفرضية رغم ضعفها الظاهر، فتمسكت إيسلر من جهتها بفرضية وجود نظام أمومي، لكنها طرحت تأويلاً جديدًا لم تستطع أن تضيف من خلاله أكثر من قولها بأن الحفريات لا تدل علىٰ سيطرة حقيقية للأم، بل كان المجتمع الأمومي مجتمع تشاركي، وتضيف: «**ولا يعني هذا أن الرجال كانوا يعاملون كتابعين أو يعتبرون تابعين لأن كلاً من الرجال والأطفال كانوا أطفالاً للآلهة كما هم أطفال المرأة التي ترأست العائلات والعشائر، وفي حين أن هذا الأمر أعطىٰ النساء مزيدًا من القوة فإن مشابهتنا للعلاقة التي تقوم اليوم بين الأم وطفلها تدعونا للاعتقاد بأن هذه القوة كانت قوة ترتبط بالمسؤولية والرعاية أكثر من ارتباطها بالقمع والامتياز والخوف**»[1].

غير أن نسويات أخريات بدأن بهجران الفرضية ومرتكزاتها المعرفية كما أوضحت الباحثة النسوية الأمريكية وأستاذة الفنون القديمة وعلم الآثار في جامعة كولومبيا زينب البحراني، وعضدته بما توصلت إليه عبر تخصصها في علم الآثار ودراساتها ومشاركاتها الميدانية الحديثة في التنقيب في الأثري في كل من العراق وسوريا، معتبرةً أن العودة النسوية إلىٰ ماضٍ أمومي متخيَّل ومكتنز بقيم مثالية هو ما قاد الباحثات النسويات الغربيات إلىٰ الشرق الأدنىٰ وإلىٰ بلاد

---

(١) المرجع السابق، ص (٧١).

مابين النهرين، باعتبار هذه المناطق تمثل حدود الزمن التاريخي ومنها ينبع التاريخ بحسب الرواية التاريخية المعروفة، ومن هنا تجسدت أهمية استرجاع تصاوير الإلاهات الأنثويات بوصفها الدليل علىٰ النفوذ القديم للمرأة، ومثلت هذه التصاوير والتماثيل البرهان الأركيولوجي (الأثري) الذي يجري الاستشهاد به من قبل الباحثات النسويات لإثبات وجود نظام أمومي في الماضي تنتفي فيه التراتبية وتتحقق المساواة ويمكِّنهن من الإطاحة بما هو قائم، فإثبات وجود هذا النظام بوصفه حقيقة تاريخية في العصر القديم يمكن النسويات من إظهار الاضطهاد الواقع علىٰ المرأة باعتباره وضعًا تاريخيًا طارئًا وليس حالة طبيعية. لكن الحجج الأثرية التي ساقتها النسويات لم تسلم من الانتقادات، وقد ذكرت الباحثة جانبًا من الانتقادات الغربية الموجهة للحجج الأثرية التي تسوقها الباحثات النسويات، ومن تلك الانتقادات المنهجية الانتقائية المتمثلة في إهمالهن التماثيل الصغيرة التي جمعت بين المقدس والمدنس في الأنثىٰ والتي لا تخدم فكرة الأنثىٰ المقدسة[1]، وقالت في كتابها الصادر بالإنجليزية سنة ٢٠١٣م تحت عنوان (نساء بابل: الجندر والتمثلات في بلاد ما بين النهرين): «في كل الانتقادات المذكورة رُفضت فكرة إسباغ صفة الألوهية علىٰ

---

(١) انظر: نساء بابل: الجندر والتمثلات في بلاد ما بين النهرين - لزينب بحراني، ترجمة: مها حسن بحبوح، قدمس للنشر والتوزيع، ط١، ص (٥٢-٥٣، ١٠٦، ٢١٣-٢١٥).

تلك التماثيل، وعُدَّ ذلك مجرد أسطورة معاصرة، فلا توجد أية أدلة أركيولوجية علىٰ أن تلك المجتمعات القديمة كانت في واقع الأمر أمومية، كما لا توجد أية أدلة علىٰ أن تلك الإلهات كُنَّ يُعبدن علىٰ نحو حصري، وإذا كانت تلك التصاوير هي فعلاً للإلهات، فبالإمكان القول أن الآلهة الذكور كانوا يُعبدون في الوقت نفسه مع الإلهات الأمهات»[1].

وينتظم موقف هذه الباحثة ضمن الموقف النقدي الغربي للنظام الأمومي والدائر داخل الدائرة النسوية وما بعد النسوية الرافضة للنظام الأمومي ما قبل التاريخي والذي اعتُبر بُنية أسطورية عُدَّت هي ذاتها جزءًا من سردية النظام الأبوي الذي ترغب النسويات بالإطاحة به[2]، وأضافت الباحثة: «أود القول أخيرًا: أن هذا البحث عن نظام أمومي ما قبل تاريخي ليس بالأمر الجديد، فتلك الأفكار في نهاية المطاف ليست بالنسوية ولا هي بالتقدمية، بل هي عودة إلىٰ أعمال من نوع الدراسة التي وضعها بخأفن في سويسرا عام ١٨٦١م، تحت عنوان (الخرافة والدين والحق الأمومي)، وعرَّف فيها بخأفن النظام الأمومي بأنه المرحلة الأكثر بدائية من التطور الثقافي التي حل محلها حكم الرجال الأكثر ثقافة وتنويرًا»[3].

وينسحب تشكيك الباحثة التي قدمت دراسة معمقة للتماثيل

---

(١) المرجع السابق، ص (١٠٦).

(٢) المرجع السابق، ص (٥٢).

(٣) نساء بابل، ص (٥٣).

والتصاوير والمدونات النصيَّة المتعلقة بها علىٰ الفرضيات النسوية الأخرىٰ، كما شككت في التأويلات المطروحة للتماثيل والتصاوير القديمة والمتصلة بالنظام الأبوي والجندر كخنوثة الآلهة المفتقرة لدلائل[1].

وبالعودة لياكوب بخأفن (١٨١٥ - ١٨٨٧م) المشار إليه - وهو حقوقي ومؤرخ في علم الأديان المقارن - فقد بنىٰ بخأفن نظريته متأثرًا بالنظرية التطورية في نسختها الداروينية، ووضع مراحل حضارية مفترضة مرَّت بها الإنسانية. وقد استندت نظرية بخأفن إلىٰ عدة مصادر منها مجموع المؤلفات الإثنوجرافية والتاريخية حول العالم القديم والتي سطرها المؤرخون والسواح والرومان والإغريق، وعلىٰ رأسها ما كتبه المؤرخ الشهير هيرودوت (٤٨٤- ٥٢٥ ق.م) حول مصر والعراق والأناضول وفينيقيا، كما استمد بخأفن من الأساطير القديمة، ومجموع النقوش والرموز الموثقة علىٰ المقابر، ومثلها كذلك الآثار التي تشير (للمادة الطبيعية للمرأة)، من مجموع هذه المصادر تشكلت فلسفة بخأفن التاريخية ومنها بدأ الاهتمام بدور المرأة في الحضارات القديمة[2].

يسوقنا هذا التتبع إلىٰ دور النظرية التطورية في ترسيخ النظرة

---

(١) المرجع السابق، ص (٢٣٠-٢٣٢).

(٢) النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب - لإبراهيم الحيدري، دار الساقي، ط١، ٢٠٠٣م، ص (١٢).

الدونية للمرأة، وكيف تم تأسيس هذه النظرة الضيقة علىٰ قاعدة عريضة من التحليلات والأساطير والفرضيات غير المبرهنة، مما يمد جذور الإشكالية من الأعمال المؤسسة علىٰ النظرية التطورية إلىٰ النظرية نفسها.

مساهمة النصوص في تجسير الفجوات وأسئلة الوصل:

ضمت دفتا هذا الإصدار لدلائل أربعة نصوص مترجمة، يتشارك معظمها في الإجابة علىٰ التساؤلات المطروحة حول المرأة والداروينية والإلحاد، والموزعة علىٰ مستويين: نظري وواقعي.

أما التساؤلات المتعلقة بالمستوىٰ النظري، فحول حقيقة التصور التطوري الدارويني للمرأة، أو ما موقعها في هذه الرؤية؟

وهذا ما يسهم في الإجابة عنه النص المحوري لمجموعة النصوص التي تضمها هذه الصفحات، والمترجم تحت عنوان **(تاريخ التدريس التطوري لدونية النساء)** لجيري بيرغمان.

وأما التساؤلات المتصلة بالمستوىٰ الواقعي، فحول المرأة في التجمعات الإلحادية، أو ما هو واقع المرأة في تلك التجمعات انتماء وتأثيرًا؟

وهذا ما يسهم النص المترجم تحت عنوان **(التحرش في المؤتمرات الإلحادية)** بالإجابة عنه فيما هو أشبه بشهادة موثقة لربيكا واتسون، إحدىٰ المنتميات الفاعلات في تجمعات الإلحاد.

كما نجد مناقشة مهمة في مقالة بعنوان (**من هيتشنز إلىٰ دارون: أين النساء في الإلحاد الجديد؟**) لكاتي إنجل هارت.

ورغم أن كاتي لم تشر لانضمام الملحدة أيان هرسي لحلقة دوكينز المعروفة بالفرسان الأربعة، حيث وُصِفت هرسي بالفارسة الرابعة لفرسان الإلحاد بعد هلاك هيتشنز سنة ٢٠١١م وحلولها محله سنة ٢٠١٢م، لكن الكاتبة أشارت عمومًا إلىٰ ندرة الحضور النسائي المؤثر في نادي الإلحاد الجديد كما تسميه.

أما المقالة الأخيرة وهي بعنوان (**لماذا لم تزد مكاسب حقوق المرأة سعادة النساء؟**) لأنا بيثريك، فيشوبها برأيي أمران، فهي أولاً غير منسجمة موضوعيًا مع المقالات الثلاث السابقة، ثم إنها رتبت انخفاض الشعور بالسعادة علىٰ ارتفاع وعي النساء بحقوقهن، كما رتبت بالمقابل ارتفاع الشعور بالسعادة لدىٰ بعضهن علىٰ ضعف الوعي بالحقوق وتسويغ غياب العدل في الأجور، وهو ترتيب خاطئ في تصوري فربط انخفاض السعادة بالمكاسب التي حصدها ارتفاع وعي المرأة تبسيطٌ مخل موضوعيًا وخاطئ أخلاقيًا كذلك، فالمطالب النسوية بالمساواة في الأجور من أعدل المطالبات النسوية وأحقها بالدعم، كما أن مشكلات المرأة المتعلقة بالسعادة وغيرها مما لا يمكن رده إلىٰ عامل واحد علىٰ طريقة الكاتبة.

ويبقىٰ تساؤل أخير هو: هل هناك علاقة بين المستويين النظري والواقعي؟ وهل الآخر انعكاس للأول أم ماذا؟

هذا ما يترك لاستخلاصات القارئ باعتباره شريكًا في عملية القراءة لا متلقيًا فحسب.

وبين يدي النهاية أشكر مركز دلائل لهذا الإصدار الثري والنافع رغم محدودية صفحاته، والشكر موصول للدكتور خالد الدريس وفقه الله.

والحمد لله رب العالمين.

ملاك إبراهيم الجهني
أكاديمية وباحثة
malak2j@gmail.com

* * *

المقال الأول[1]:
تاريخ التدريس التطوري لدونية النساء...

لجيري بيرغمان Jerry Bergman

يُدَرِّس جيري بيرغمان البيولوجيا والكيمياء والفيزياء في كلية ولاية نورثويست في أركبولد أوهايو، وله أكثر من ٤٠٠ مطبوعة في المجلات العلمية العامة والمتخصصة، كما ألّف عشرين كتابًا ورسالة. ترجمت أعماله إلىٰ ثماني لغات، وكان متحدثًا رئيسيًا في كثير من الجامعات عبر الولايات المتحدة وأوروبا لمناقشة أبحاثه، كما حلّ ضيفًا في العديد من البرامج الإذاعية والتلفزيونية. نال الدكتور بيرغمان ست درجات جامعية بما فيها درجتي ماجستير ودرجتي دكتوراه. آخر دكتوراه حصل عليها كانت في البيولوجيا ومعظم دروسه في مجال العلوم. يقيم في مونتبلير، أوهايو منذ ١٩٨٦ مع زوجته ديانا وطفليه آرون وميشالي وطفلي زوجته كريستين وسكوت وحفيدين هما كريستين وبرين.

---

(١) المقال كاملاً متاح للتنزيل المجاني بصيغة PDF علىٰ الرابط التالي:
http://www.rae.org/pdf/women.pdf

الملخص...

إن مراجعة كتابات أبرز التطوريين أواخر القرن التاسع عشر وخاصّة تشارلز داروين، تكشف محورًا رئيسيًا في نظرية التطور وهو معتقد الدونية الفكرية والجسدية للمرأة. نتج هذا الاعتقاد من الاستنباط المنطقي لرؤية كونية تعتمد الانتقاء الطبيعي: حيث تعرض الرجال لضغوط انتقائية أكبر بكثير من النساء، وخاصة في الحرب والتنافس علىٰ الأقران، والغذاء، والملابس. ولذلك تطور الرجال أكثر، وعلىٰ العكس من ذلك كانت النساء محمية من تأثير الانتقاء التطوري نتيجة للعادات التاريخية التي أملت علىٰ الرجال أن ينفقوا علىٰ النساء والأطفال ويحموهم. وبالتالي عمل الانتقاء الطبيعي دومًا بفعالية أكبر علىٰ الذكور منتجًا تفوقًا ذكوريًا في كل مجالات المهارات عمليًا. علىٰ الرغم من تأثير الثقافة أيضًا، إلا أن المعتقدات في كثير من الأحيان كانت أكثر أهمية من الحفريات وغيرها من الأدلة عندما يتعلق الأمر بتفاصيل تتعلق بنظرية التطور. وسنناقش أيضًا الآثار المترتبة لهذا التاريخ الثقافي علىٰ المسيحية.

إن مفهوم البقاء للأصلح هو أحد الجوانب الرئيسية لنظرية داروين، ويتطلب وجود اختلافات ضمن مجموعة الأفراد لكي تستطيع الطبيعة الانتقاء منها. فعلىٰ الأرجح تنقرض المجموعات الأدنىٰ، وتزدهر المجموعة المتفوقة وتترك نسلًا أكثر[1]، إن العنصرية

(1) Charles Darwin, The Descent of Man and Selection in Relation to Sex (New York: D. Appleton and Company, 1871 [1896 edition]).

البيولوجية التي نتجت عن نظرية التطور التابعة للمذهب الطبعي موثّقة جيدًا ومعروفة تمامًا. وقد كانت نظرية تحسين النسل «الأيوجينية»[١] التي وضعها فرانسيس غالتون Francis Galton ابن عم تشارلز داروين على وجه الخصوص مؤثّرة في ظهور العنصرية البيولوجية وفي المأساة التي جلبتها إلى الحضارة[٢]، لكن الأمر الأقل شهرةً هو أن كثيرًا من أنصار التطور بما فيهم داروين، درّسوا بأن المرأة أدنى بيولوجيًا وفكريًا من الرجل. وكانت فجوة الذكاء التي اعتقد الداروينيون وجودها بين الرجال والنساء كبيرة لدرجة أن بعض التطوريين صنفوا الرجال والنساء إلى نوعين نفسيين مختلفين: حيث سموا الذكور هومو فرونتاليس homo frontalis، وسموا الإناث هومو باريناليس homo parietalis[٣].

كان تفوق الذكور مهمًا جدًا لنظرية التطور حتى قال ويليام جورج: «**اعتقد داروين أن عنصر تنافسية الذكور في الانتقاء الجنسي كان أساس تطور الإنسان، فالانتقاء الجنسي كان الأكثر كفاءة من كل**

---

(١) هي النظرية التي تبنت الحيلولة دون تكاثر أعراق معينين من البشر على اعتبار أنهم أقل تطوراً، حتى لو كانت تلك الحيلولة عن طريق العقم الإجباري والضغط المجتمعي والتحايل الطبي. (المترجم).

(2) Jerry Bergman, "Eugenics and the Development of Nazi Race Policy,' Perspectives on Science and Christian Faith 44, no. 2 (June 1992): 109-123 and George J. Stein, "Biological Science and the Roots of Nazism," American Scientist 76, (Jan-Feb 1988): 50-58.

(3) Rosaleen Love, "Darwinism and Feminism: The 'Women Quesfion' in the Life and Work of Olive Schreinr and Charlotte Perkins Gilman" in David Oldroyd and Ian Langham (Eds.), The Wider Domain of Evolutionary Thought (Holland: D. Reidel, 1983), 113-131.

الأسباب التي أدت إلىٰ الاختلافات... بين الأعراق البشرية، وإلىٰ حد ما بين البشر والحيوانات الأدنىٰ»[1].

صراعات الانتقاء الطبيعي موجودة بين الجماعات، ولكنها «أكثر شدّة بين أفراد النوع نفسه، ممن لديهم احتياجات متماثلة ويعتمدون علىٰ الأرض ذاتها لتزودهم بالغذاء والأقران للتزاوج»[2]. لقد كان من الشائع فيما مضىٰ تدريس مُنظري التطور أن الصراع الشديد بين الأقران في النوع ذاته كان عاملًا رئيسيًا في إحداث تفوق الذكر، كما كانت أفكار داروين كما فسرها في كتاباته ذات تأثير كبير علىٰ المجتمع والعلم، وقد خَلُص إيفلين ريتشاردز إلىٰ أن آراء داروين عن طبيعة المرأة قد دعمت تنظيره التطوري، «وبالتالي تغذية أجيال عديدة بالتحيز الجنسي (الجنسانية) sexism العلمي»[3] كما لاحظ إيلان مورغان أن داروين حفز الرجال لإيجاد مجموعة أسباب تفسر لماذا كانت المرأة «أدنىٰ بشكل واضح من الرجل وخاضعةً له بشكل غير عكوس» وذلك باستخدام البيولوجيا وعلم الأعراق البشرية ethnology وعلم الرئيسيات primatology»[4].

وأسباب هذا معقدة، لكن أحدها هو التأثير الكبير للافتراضات التطورية - خصوصًا الانتقاء الطبيعي والجنسي - علىٰ العلماء وعلىٰ

(1) Wilma George, Darwin (London: Fantana Paperbacks, 1982), 136.
(2) Evelyn Reed, Woman's Evolution: From Matriarchal Clan to Patriarchal Family (New York: Pathfinder Press, 1975), 45.
(3) Evelleen Richards, "Will the Real Charles Darwin Please Stand Up?" New Scientist, (Dec. 22/29 1983): 887.
(4) Elaine Morgan, The Descent of Woman (New York: Stein and Day, 1972), 1.

رؤيتهم الكونية. ويمكن معرفة مدىٰ هذا التأثير من واقع تأثر المنظرين من سيغموند فرويد وحتىٰ هافلوك إيليس Havelock Ellis إلىٰ حد كبير بهذا الاستنتاج حول دونية النساء التطورية[1].

كما وصف جون ديورانت ببراعة كيف كان كل من العنصرية والتحيز الجنسي «الجنسانية» أساسيان للتطور فقال:

«طرح داروين نقاشه عن علم النفس في كتاب نشوء الإنسان بإعادة تأكيد التزامه بمبدأ الاستمرارية: «إن هدفي... هو إثبات عدم وجود اختلاف أساسي بين البشر والثدييات العليا فيما يخص القدرات العقلية». استند داروين في رأيه علىٰ مزيج مقنع من حجج تشابه الشكل الحيواني والشكل البشري. أما الهمج الذين قيل إنهم يملكون أدمغة صغيرة وأطراف أكثر قدرة علىٰ الإمساك مقارنة مع العروق الأرقىٰ والذين تسيطر علىٰ حياتهم الغريزة أكثر من العقل والمنطق... فقد وُضعوا في موقع وسط بين الطبيعة والإنسان. وقاس داروين هذا الوضع ووسعه ليشمل أكثر من الأطفال والمعاقين خلقيًا، وضم النساء أيضًا. واعتبر أن بعض قواهن من الحدس وسرعة الإدراك وربما التقليد «صفات مميزة للعروق الأدنىٰ، وبالتالي لحالة ماضية وأدنىٰ من الحضارة»[2].

---

(1) Stephanie A. Shields, "Functionalism, Darwinism, and the Psychology of Women; A Study in Social Myth," American Psychologist 30, no. 1 (1975): 739-754.

(2) John R. Durant, "The Ascent of Nature in Darwin's Descent of Man" in The Darwinian Heritage, Ed. by David Kohn, (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1985), 295.

انعكست هذه المعتقدات عمومًا في موقف داروين الشخصي تجاه المرأة والأعراق غير القوقازية. وقد أبدىٰ داروين قلقه مرّة من أن أخاه إيرازموس قد يتزوج سيدة شابة تدعىٰ مارتينو وكتب عنه:

«... لن يكون أكثر من زنجي بالنسبة لها. تخيل إيرازموس المسكين كزنجي يخدم سيدة ذكية ونشيطة... لقد عادت مارتينو للتو من جولة مكوكية إلىٰ أمريكا، مفعمّة بالأفكار عن حقوق المرأة المتزوجة... فالمساواة التامة في الحقوق جزء من مذهبها... ويجب أن ندعو لزنجينا المسكين... ولم تنضم مارتينو إلىٰ عائلة داروين»(1).

ومن بين المؤشرات الأكثر تعبيرًا عن مواقف داروين تجاه المرأة هي العبارات التي كتبها عندما كان شابًا، والتي لخصت ما رآه من ميزات الزواج وتشمل:

«الأطفال إن شاء الله، وصاحبة دائمة، تكون صديقة عند التقدم بالعمر لمن يرغب بذلك، فهي غرضٌ يمكن أن تحبه وتلعب معه - خيرٌ من الكلب علىٰ أي حال. ومنزل وشخصٌ يعتني بالمنزل - سحر الموسيقىٰ والدردشة مع المرأة. هذه الأمور جيدة لصحة المرء (التأكيد مضاف علىٰ النص الأصلي)»(2).

ثم عدد داروين مخاوفه التي تشمل فقد حرية السفر «والاضطرار

---

(1) Quoted in Adrian Desmond and James Moore, Darwin (New York: Warner Books, 1991), 201.
(2) Charies Darwin, The Autobiography of Charles Darwin 1809-1882 (Ed. by Nora Barlow), (New York: W. W. Norton & Company, Inc., 1958), 232-233.

لزيارة الأقارب والمشاركة في جميع الأمور السخيفة»، وضياع الوقت - وعدم القدرة على القراءة في الأمسيات - والسمنة والكسل - والقلق والمسؤولية - فقد المال اللازم لشراء الكتب...الخ. وإذا أصبح لدي العديد من الأطفال سأضطر لكسب لقمة عيشهم، وربما لن تحب زوجتي لندن، وبالتالي فهو حكم بالنفي وتدهور الحال لأصبح بالنهاية أحمقًا وخمولاً كسولًا"[1].

من العوائق الأخرى التي يرى داروين أن الزواج سيسببها «كيف سأدبر كافة أعمالي إذا كنت مضطرًا للمشي كل يوم مع زوجتي - يا للهول!» ورأى أنه كرجل متزوج سيكون «عبدًا مسكينًا... حالته أسوأ من عبد أسود» ولكن يذكر بعد ذلك أنه « لا يمكن للمرء العيش في حياة العزلة في الشيخوخة، بلا أصدقاء ولا أطفال يحدقون في وجهه...» خلص داروين في نقاشه بالملاحظة الفلسفية بأنه: «يوجد كثير من العبيد السعداء» وقد تزوج بعد فترة قصيرة في عام ١٨٣٩ من قريبته إيما ويدجوود"[2].

كتب داروين إلى برينت هذه الكلمات التي تبدي رأيه بدونية المرأة فقال: «سيكون من الصعب تبني نظرة مزدرية - وحتى متسامحة - لتبعية المرأة للرجل»[3]. وقد كان تحليل إيفلين ريتشاردز لأفكار

---

(١) المرجع السابق Ibid.

(٢) المرجع السابق Ibid ص (٢٣٤).

(3) Peter Brent, Charles Darwin: A Man of Enlarged Curiosity (New York: Harper and Row, 1981), 247.

داروين كالتالي:

«منذ البداية شرع (أي داوين) في عرض حالة الزواج بآرائه المحددة والواضحة حول دونية المرأة الفكرية وحالة إذعانها. فليس على الزوجة أن تطمح لأن تكون رفيقة زوجها الفكرية، بل لتسليه في ساعات فراغه... وتعتني بشخصه وبيته، وتجعله متفرغًا ونشيطًا للأمور الأكثر أهمية. إن هذه الآراء مضمنة في الملاحظات التي كتبها عالم الطبيعية الشاب والطموح قبل إيجاده «لامرأة ناعمة لطيفة على أريكة»... (رغم أن داروين هو من احتكر الأريكة طوال حياتهما معًا وليست إيما)»[1].

لاحظ كيفليس أن التبرير الفكري الرئيسي الذي قدمه داروين حول معتقده بدونية المرأة موجودٌ في كتابه نشوء الإنسان The Descent of Man. وقد استنتج داروين هنا أن «صغار السن من كلا الجنسين يشبهان الأنثى البالغة في معظم الأنواع» وبناء على هذا الدليل وغيره «ناقش داروين بأن الذكور يتمتعون بتقدم تطوري أفضل من الإناث»[2]. انتقل هذا الرأي عن المرأة بسرعة إلى العلماء المعاصرين لداروين. فاستنتج عالم الأنثروبولوجيا ماكروجر آلان أن: «المرأة حافظت على النمط الطفولي... جسديًا وعقليًا وأخلاقيًا، فالمرأة عبارة عن طفل كبير... ومن غير المؤكد أن تكون النساء قد

(1) Richards, 886.
(2) Bettyann Kevles, Females of the Species: Sex and Survival in the Animal Kingdom (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1986), 8.

ساهمت بأي فكرة أصيلة مهمة لها أدنىٰ قيمة دائمة للعالم في مجال الفكر المجرد»[1].

أعجب كارل فوجت Carl Vogt، أستاذ التاريخ الطبيعي في جامعة جنيف، بالعديد من «استنتاجات عالم الطبيعة البريطاني العظيم تشارلز داروين»، ورأىٰ «بأن كلًا من الطفل والأنثىٰ والشيخ الهرم» عندهم شخصية «زنجي بالغ» وخصائصه الفكرية[2]. وأن: «الأنثىٰ مشابهة من ناحية الفكر والشخصية للرضع» والأعراق «الدنيا»[3]. وخلص فوجت إلىٰ أن «إناث البشر أقرب للحيوانات الدنيا مقارنة مع الذكور». و«بالتالي يجب أن نكتشف تشابهًا أكثر (مع القرود) إذا أخذنا الأنثىٰ كمعيار»[4]. وذلك لأن تطورها توقف باكرًا، فالأنثىٰ «إنسان توقف تطوره»[5]. استنتج فوجت أيضًا أن الفجوة التطورية بين الذكور والإناث تزداد مع تقدم الحضارة، وأنها أكبر في المجتمعات المتقدمة في أوروبا[6]. «أعجب داروين بأعمال فوجت وكان فخورًا به واعتبره

(1) J. McGrigor Allan, "On the Real Differences in the Minds of Men and Women," Journal of the Anthropological Society 7 (1869): 210.

(2) Carl Vogt, Lectures on Man: His Place in Creation, and the History of Earth, edited by James Hunt, (London: Paternoster Row, Longman, Green, Longman, and Roberts, 1864), xv.

(٣) المرجع السابق Ibid ص (١٩٢).

(4) Roger Lewin, Bones of Contention (New York: Simon and Shuster, 1987), 305.

(5) Shields, 749.

(6) Evelleen Richards, "Darwin and the Descent of Women," in David Oldroyd and Ian Langham (Eds.), The Wider Domain of Evolutionary Thought (Holland: D. Reidel, 1983), 75.

من بين أنصاره»[1]. ومن مناصري داروين الآخرين الذين قبلوا بهذا النمط من التفكير وخاصة قوة الانتقاء الجنسي.

أما جورج جون رومانز George John Romanes وهو عالم تطور وفيزيولوجي شاب. فقد قدم له داورين قبل فترة قصيرة من وفاته مجموعة كبيرة من البيانات التي لم يتسن له الوقت لترتيبها... وحسب رومانز فمع تحرك الأجناس تجاه أدوار أكثر تباينًا... **تصبح الإناث أكثر عاطفية وأقل دماغًا بشكل متزايد**. لقد وافق رومانز داورين في رأيه بأن الإناث أقل تطورًا من الذكور وطرح هذه الأفكار في عدة كتب وفي العديد من المقالات التي أثرت على جيل كامل من علماء البيولوجيا... وفي جامعة بنسلفانيا كتب عالم الحفريات الأمريكي المرموق إدوارد درينكر كوب Edward Drinker Cope أن **ذكور الحيوانات تلعب دورًا أكثر فعالية في صراع الوجود**... وشمل رومانز وكوب **البشر في تعميماتهم**[2].

درّس داروين أن الاختلافات بين النساء والرجال سببها على الأرجح هو الانتقاء الجنسي، فلكي ينقل الذكر جيناته عليه أن يثبت نفسه بتفوقه جسديًا وفكريًا على الرجال الآخرين في منافسة على الإناث، في حين الإناث يجب أن تكون فقط ذات أفضلية في الجاذبية

---

(١) المرجع السابق Ibid ص (٧٤).

(2) Kelves, 8-9.

الجنسية. استنتج داروين أن الانتقاء الجنسي يعتمد علىٰ نشاطين مختلفين ضمن النوع: صراع الذكر مع الذكور لحيازة الإناث، واختيار الإناث لقرينها[1]. وبكلمات داروين: يعتمد التطور علىٰ «صراع الأفراد من الجنس الواحد وهم غالبًا الذكور من أجل حيازة الجنس الآخر...»[2].

درّس داروين أن الاختلافات بين الرجال والنساء عائدةٌ بمعظمها للانتقاء الجنسي

ودعمًا لهذا الاستنتاج، استخدم داروين مثالًا عن نساء «الهمج» الأستراليات اللواتي «يعتبرن سببًا دائمًا للحروب بين أعضاء القبيلة ذاتها وبين قبائل مختلفة، مما ينتج انتقاءً جنسيًا» بسبب المنافسة الجنسية[3]. استشهد أيضًا بتقليدٍ للهنود الحمر في أمريكا الشمالية حيث يتطلب الزواج صراع الزوج مع منافسين ذكور للحفاظ علىٰ زوجته، «حيث يحمل الرجل الأقوىٰ جائزته»[4]. وتكون النتيجة حسب استنتاج داروين أن «الرجل الأضعف... نادرًا ما يستطيع الحفاظ علىٰ زوجته إن اعتقد رجل أقوىٰ أنها تستحق أن تؤخذ. تسود هذه العادة في كافة القبائل» في أمريكا الشمالية. ولم يتبين لنا مدىٰ شيوع هذه الممارسات

(1) George, 69.
(2) Charles Darwin, The Origin of Species by Means of Natural Selection (New York: D. Appleton and Company, 1859 [1897 edition]), 108.
(3) Darwin, Descent of man, 561.
(٤) المرجع السابق Ibid ص (٥٦٢).

في ذلك الحين، ولكنها لم تكن شائعة في أوربا وآسيا[1].

استخدم داروين عدة أمثلة أخرىٰ لشرح القوىٰ التطورية التي اعتقد أنها أعطت الرجال الأفضلية في القوىٰ الجسدية والفكرية، وسهولة انقياد المرأة وخجلها الجنسي. وبما أن البشر تطوروا من الحيوانات **«ولا يجادل أحد أن الثور يختلف في استعداده عن البقرة، وأن الخنزير البري يختلف عن الخنزيرة، ويختلف الفحل عن الفرس، كما أنه من المعروف جيدًا عند حفظة معارض الوحوش أن ذكور القردة الكبار تختلف عن الإناث»**. يرىٰ داروين وجود اختلافات مشابهة عند البشر[2]. وبالتالي استنتج أن الرجال **«أكثر شجاعة وحيوية وولعًا بالقتال من النساء وأنهم أكثر عبقرية وابتكارًا»**[3].

كانت إحدىٰ المشكلات الكبيرة لتطبيق المشاهدات العلمية في مملكة الحيوان علىٰ البشر أن العلماء **«أصبحوا الآن جاهزين لمناقشة المشاكل الأكثر تعقيداً في الإصلاحات الاقتصادية انطلاقًا من الأنماط السلوكية الجنسية لأسماك البلطي، وليس انطلاقًا من إرادة الله»**[4]. رغم

---

(1) Michael T. Ghiselin, The Economy of Nature and the Evolution of Sex (Berkeley, CA: Universitv of California Press, 1974); Mary Jane Sherfey, The Nature & Evolution of Female Sexuality (New York: Vintage Books, 1973); Mary Reige Laner, "Competition in Courtship" Family Relations, April 1986, 275-279; Kevles; W. Michael Becker and Carrie Miles, "Interpersonal Competition and Cooperation as a Function of Sex of Subject and Sex of Counterpart," The Journal of Social Psychology 104 (1978):303-304; John A. Phillips, Eve: The History of an Idea (San Francisco: Harper & Row Publishers, 1984); and Bernard Campbell, (Ed.), Sexual Selection and the Descent of Man 1871-1971 (Chicago: Aldine Publishing Company, 1972).

(2) Darwin, Descent of man, 563.

(٣) المرجع السابق Ibid ص (٥٥٧).

(4) Morgan, 1.

ذلك ونتيجة للداروينية، تَجاهل معظم علماء التطور هذه المشكلة، واستنتجوا اختلاف النساء عن الرجال اختلافًا كبيرًا في الحالة العقلية والذكاء، مثلهم مثل إناث وذكور أنواع الحيوانات الأخرىٰ. بل لقد استنتجوا أيضًا أن العديد من الصفات الأنثوية «**هي سمة مميزة للأعراق الأدنىٰ، وبالتالي للحالة الماضية والمتدنية من التحضر**»[1].

تَوصَّل داروين بالخلاصة إلىٰ أن الاختلاف الرئيسي في القوىٰ الفكريّة بين الجنسين مُبَرهن بتحقيق الذكر منزلَة أسمىٰ من الأنثىٰ في كل المجالات، سواء تلك التي تتطلب تفكيراً أو مَنطقًا أو مُخيلة عميقة أو حتىٰ في المجالات التي ليس فيها سوىٰ مجرد استخدام الحواس واليدين. إذا وضعنا قائمتين من الرجال والنساء العظماء في الشِعر والرسم والنحت والموسيقىٰ... والتاريخ والعلوم والفلسفة فلا مجال للمقارنة. يمكن أن نستدل علىٰ ذلك أيضًا من قانون الانحراف عن المتوسط الذي وضحه السيد غالتون في كتابه «**عبقرية الوراثة**» والذي ينص علىٰ أنه مادام الرجال قادرين علىٰ التفوق بشكلٍ واضح علىٰ النساء في كثيرٍ من العلوم، فلا بد أن **متوسط القوة الذهنية عند الرجل أكبر من متوسط القوة الذهنية لدىٰ النساء**[2].

اعتقد داروين طوال حياته بهذه الآراء حول «**تفوق الذكور**» حيث اعتقد أنها ضرورية في التطور[3]. ومن الواضح أن داروين قد تجاهل بالكامل **التأثيرات الكبيرة للثقافة والبيئة وتباين الأدوار الاجتماعية**

(1) Darwin, Descent of man, 563-564.
(2) Darwin, Descent of man, 564.
(3) Richards, Real Charles Darwin, 885.

وقلة الفرص الفكرية والمهنية نسبيًا التي كانت موجودّة في أيامه للنساء[1]. فقد اعتقد مثله ككثير من علماء البيولوجيا الاجتماعية أن البيولوجيا وليست البيئة هي المصدر الرئيسي للسلوك والأخلاق وكافة الصفات الذهنية[2]. وقال داروين قبيل وفاته أنه يتفق مع غالتون في إيمانه بأن الثقافة والبيئة ذات تأثير ضئيل على العقل، وأن معظم صفاتنا فطرية خُلقنا عليها[3].

نتيجة للداروينية، استنتج معظم التطوريون أن النساء مختلفات عن الرجال اختلافًا كبيرًا في الحالة العقلية والذكاء كما هي حال إناث وذكور أنواع الحيوانات الأخرى.

بالإضافّة إلى ذلك عزا داروين معظم الصفات الأنثوية إلى الانتقاء الجنسي الذكري، وعددًا قليلًا فقط من الصفات الذكورية للانتقاء الأنثوي. فقد رأى أن الإناث لسن مهتماتٍ كثيرًا بمظهر قرنائهن الجسدي، وبالتالي فالذكور ليسوا فقط «أكثر قوة جسديًا وذهنيًا من الإناث» بل لقد «نالوا أيضًا قوة الانتقاء»[4] - لقد كان التطور بأيدي الذكور ولم يكن هناك أي دورٍ للنساء فيه عمومًا[5]. بالتالي كانت النساء أقل تطورًا وأكثر بدائية، وهذا سبب سيطرة المشاعر والغريزة

(1) George C. Williams, Sex and Evolution (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1977).
(2) Richards, Darwin, 67-68.
(3) Barlow, 43.
(4) Richards, Darwin.
(5) Darwin, Descent of man, 597.

علىٰ النساء وهو الأمر الذي كان «**نقطة ضعفهن الأكبر**»[1]. إلا أن هناك مشاكل كبيرة في فرضية الانتقاء الجنسي. فالزواج يُدَبر في العديد من المجتمعات من قبل الأقارب لاعتبارات واقعية، مثل السعي للانتماء إلىٰ عائلة معينة أو للحصول علىٰ مهرٍ مُغرٍ، أو ببساطة لينزاح عن كهل الأهل عبء أحد أولادهم. رأىٰ داروين أيضًا أن القوىٰ الفكرية عند الرجل تتطور بشكل طبيعي قبل عمر الإنجاب ولا تتأثر مكوناتها الوراثية بالبيئة. فإذا كان التفوق الفكري لذكور البشر أمرًا خَلقيًا فكيف يتحقق ذلك؟ يتم عن طريق الانتقاء الجنسي حسب قول داروين وليس باختيار الإناث.

قد تكون لحية الرجل نتيجة اختيار الأنثىٰ... ولكن باعتبار حالة الأنثىٰ في القبائل البربرية -حيث يحافظ الرجال علىٰ النساء «**بحالة عبودية أكثر من ذكور أي حيوانات أخرىٰ**»- فالأغلب أن الرجل هو من يختار الأنثىٰ. وبالتالي فاختلاف مقاييس الجمال المنتقاة من قبل الرجال مسؤول عن بعض الاختلاف بين القبائل[2].

استنتج داروين أن بعض الصفات ناجمةٌ عن الانتقاء الجنسي، مثل عدم وجود شعر علىٰ جذع وأطراف الإنسان والصفات الجنسية الثانوية الأخرىٰ التي تميز الإنسان عن باقي الحيوانات الأخرىٰ. لكن السؤال الذي بقي بدون جواب هو: لماذا قد تختار الذكور أو الإناث صفات معينة في قرينها للتزاوج، **في حين أنهم كانوا يتزاوجون بنجاح**

---

(1) Shields, 742.
(2) George, 74.

لقرون دون هذه الصفات ولم تفضل معظم الرئيسيات هذه الصفات؟[1]

لسوء الحظ في هذه الحالة بحث داروين كعادته عن سبب واحدٍ لشرح كافة هذه الحقائق. لكن إذا كان الانتقاء الجنسي هو سبب تطور لحية الذكر وغيابها لدىٰ الأنثىٰ، فلماذا تفضل العديد من الإناث الذكور حليقي اللحىٰ؟ إن الثقافة هي ما يحدد الانجذاب الجنسي. وهذه المقاييس عرضةٌ لتغير دائم وكبير، **مما يستبعد الانتقاء الجنسي طويل الأمد المطلوب لتطورها بيولوجيًا**[2].

بسبب اختلاف الذكور عن الإناث اختلافًا ظاهريـًا أكبر في كافة الصفات، فقد ظُنَّ أنهم متفوقون عليهن. كان ذلك مهمًا لأن الاختلافات عن النموذج الطبيعي كانت هي الآلية المقبولة في عملية التطور (بقاء وانتقاء الاختلافات الملائمة) ولأن الذكور يبدون تنوعًا جنسيًا أكبر. **فاستنتج بُعيد ذلك أن الذكر هو العنصر المتقدم في نوع الإنسان**[3]. وبمجرد أن تبنت نظرية التطور فرضية التباين الطبيعي، أصبحت فرضية التنوع الكبير للذكور تفسيراً ملائمـاً لعدد من الاختلافات الملاحظة بين الجنسين ومن بينها تحقيق نسبة أكبر من الذكور «**المنزلةَ رفيعة**»[4].

استدل مؤيدو دونية المرأة علىٰ تنوع الرجال عقليـًا أكثر من

---

(١) المرجع السابق Ibid ص (٧١).

(2) Marcia Milhnan, Such a Pretty Face: Being Fat in America (New York: W. W. Norton and Company, 1980) and Anne Scott Beller, Fat & Thin: A Natural History of Obesity (New York: McGraw Hill, 1977).

(3) Darwin, Descent of man.

(4) Shields, 743.

النساء إلىٰ أن نسبة كلاً من الخلل الذهني والموهبة العقلية أكثر لدىٰ الرجال. لكن خصومهم ردوا بأن الرجال الأضعف سيحذفون أكثر بما أن الانتقاء يؤثر عليهم بدرجة أكبر. وبالتالي ستبدي النساء درجة أعلىٰ من الاختلاف.

كما سيتم المحافظة علىٰ الإناث الأضعف بالطبيعيين اللذين يحمونهم. كان عمل هولينجوورث مهمًا للتشكيك بفرضية التباين. فقد وجدت أن النساء المعتوهات أفضل قدرةً علىٰ العيش خارج مؤسسات الصحة العقلية جزئيًا بسبب دورها كأنثىٰ، وبالتالي ستجد المسوحات الإحصائية في هذه المؤسسات عدداً أقل من الإناث. كما **تؤثر الأمراض المرتبطة بالجنس إضافة للعوامل الاجتماعية علىٰ أكثر الرجال الموصوفين بالمعتوهين**[1]. كشفت هذه المناقشات ضعف الأدلة التجريبية لنظرية دونية المرأة، وكشفت أيضًا عن العديد من المشاكل في كل من نظريتي الانتقاء الجنسي والطبيعي.

سبب قلة عدد النساء البارزات هو اقتصار دورهن الاجتماعي في كثير من الأحيان علىٰ التدبير المنزلي وتربية الأطفال. ساهم في ذلك أيضًا القيود المفروضة علىٰ تعليمهن وعملهن من قبل القانون والعادات التي تفرق بينهن وبين الذكور. فمن السذاجة السعي لاستقراء قياسات الذكاء والحماقة والمنزلة الرفيعة والنجاح المهني، من البيولوجيا وحدها، فضلاً عن التاريخ التطوري. ولقد تبين ضعف

(1) L. S. Hollingworth, "Variability As Related to Sex Differences in Achievement" American Journal of Sociology, 19 (1914): 510-530.

مصداقية هذه الحجة التي بدت ذات قوة جيدة فيما مضىٰ (وقبلها بالتالي العديد من المنظرين)[1].

تأثير داروين على المجتمع...

كانت نظرية أصل السلوك عن طريق الانتقاء الجنسي والطبيعي ذات تأثير كبير علىٰ المجتمع بُعيد إنهاء داروين كتابه الأول المشهور عن التطور. وبكلمات شيلدز: «**عند تطبيق نظرية التطور في العلوم الاجتماعية أصبحت الفكرة المهيمنة فيها هي السيادة التطورية للذكور القوقازيين**»[2]. استنتج التطوري الشهير جوزيف لي كونتي «**وجوب تطبيق الاختلافات الرئيسية بين الذكر والأنثىٰ الناجمة عن التطور العضوي علىٰ الأدوار الاجتماعية المميزة لكل جنس**»[3]. ونتيجة لذلك استنتج لي كونتي أن «**النساء عاجزات عن التعامل بعقلية مع المشاكل السياسية والمشاكل الأخرىٰ التي تتطلب إقصاء العاطفة وتتطلب منطقًا سليمًا**» وبالتالي فقد اعترض علىٰ حق الانتخاب للمرأة[4]. إن أساس معتقد الدونية الخَلقية هو مذهب **الحتمية البيولوجية** وغلبة الطبع علىٰ التطبع. راجع فيشر النظرية السابقة التي كانت منتشرة فيما مضىٰ انتشارًا كبيرًا والتي تعلم أن البيئة مسؤولة عن الشخصية، ثم ناقش

---

(1) Shields.

(٢) المرجع السابق Ibid ص (٧٣٩).

(3) Lester D. Stephens, "Evolution and Women's Rights in the 1890s: The views of Joseph LeConte," The Historian 38, no. 2 (1976):241.

(٤) المرجع السابق Ibid ص (٢٤٧).

التغير الجذري الذي أحدثته الداورينية في المجتمع:

«...في السنة التي أنهىٰ فيها داروين النسخة الأولىٰ غير المنشورة من نظريته في الانتقاء الطبيعي [١٨٤٢]، بدأ هربرت سبنسر بنشر مقالات عن الطبيعة البشرية. كان سبنسر فيلسوفاً سياسياً بريطانياً وعالماً اجتماعياً يعتقد أن النظام الاجتماعي البشري نتيجة للتطور، وأن الآلية التي نشأ النظام الاجتماعي بها هي «البقاء للأفضل»، وهذا تعبيره وليس تعبير داروين. كتب سبنسر في عام ١٨٥٠، «الاستاتيك الاجتماعي» وهي دراسة عارض فيها... أنظمة الرعاية الاجتماعية وأنظمة الرعاية الصحية الإلزامية والمدارس المجانية العامة وبرامج التلقيح الإلزامي، وأي شكل من أشكال «قانون الفقراء». لماذا؟

بما أن النظام الاجتماعي قد تطور عن طريق البقاء للأفضل، فقد أصبح الأغنياء أغنياءً لأنهم أفضل، وقد سادت أمم معينة لأن شعوبها أفضل طبيعيًا، وقد فاقت أعراقٌ معينة أعراقاً أخرىٰ لأنها أذكىٰ. إن التطور، وهي كلمة أخرىٰ ساهم سبنسر في انتشارها، أنتج طبقات وأممًا وأعراقًا متفوقة»[1].

وأضاف فيشر أن التعليم التطوري المبكر لا يشمل فقط فكرة الأعراق المتفوقة، بل أيضاً فكرة الجنس المتفوق - جنس الذكور - الذي هيمن وسيطر علىٰ الإناث بفضل التطور. بما أن الذكور يتوجب عليهم حماية أنفسهم وحماية الإناث، اعتقد أنهم متفوقون. وبكلمات

(1) Helen E. Fisher, The Sex Contract: The Evolution of Human Behavior (New York: William Morrow and Company, Inc., 1982),115-116.

عالم التطور توبينارد في القرن التاسع عشر، إن الذكور: **«يتحملون كافة مسؤوليات وأعباء المستقبل وينشطون بثبات في التصدي للتحديات سواء من البيئة أو من البشر الآخرين، وبالتالي يحتاجون أدمغة أفضل من النساء اللواتي يتوجب على الذكر أن يحميهن ويطعمهن... في حين يقتصر دور النساء قليلات النشاط اللواتي ليس لديهن أي مهن داخل البيت على العناية بالأطفال والحب وأن تكن منفعلات لا فاعلات»**[1].

يتعرض الذكور أيضًا لكثير من ضغوط الانتقاء التي لا تتعرض لها النساء. فقد كان الصيد مطلوبًا من الذكور، والذي يمكن أن يكون نشاطًا خطيرًا: فقد يموت المرء أو يصاب، ناهيك عن أن الصياد قد يصبح الطريدة فيُصاب أو يقتل. كان الذكور الأسرع والأقوى والأكثر قدرة على البقاء والصيد وإحضار الطعام. وبالتالي يؤثر الانتقاء الطبيعي عليهم بدرجة أكبر من الإناث. وباختصار فإن تفوق الذكر عائد **«لموروثه من أسلافه الذكور... والفترات الزمنية الطويلة التي مرت على الرجال في حالتهم الهمجية، ونجاح الرجال الأقوى والأشد، سواءً في الكفاح العام في الحياة أو في التنافس على الزوجات، نجاح من شأنه أن يضمن تركهم لذرية أكثر عدداً من إخوانهم الأقل أفضلية»**[2]. أما النساء، فلم يصطدن تاريخيًا ولكن كنّ يعتنين بالحيوانات الداجنة ويؤدين مهمات متكررة وضيعة، وبالتالي كنّ بعيدات عن التأثر

---

(1) Quoted in Stephen Jay Gould, The Mismeasure of Man (New York: W. W. Norton & Company, 1981),104.

(2) Darwin, Descent of man, 563.

بضغوط الانتقاء الطبيعي. وبما أن الانتقاء طويل الأمد يحذف الضعيف، فإن كافة العوامل التي تساعد في الحفاظ على الضعيف تسمح له بتمرير جينات الدونية إلى أبنائه وبالتالي فهي تعمل ضد التطور.

كان دور الذكور التقليدي لمدة طويلة هو حماية النساء، حيث يذهب الرجال فقط للمعركة، وتمنع قواعد الحرب قتل النساء عمدًا. كانت النساء تقتل أحيانًا أو تختطف أو تغتصب، ولكن لم يشاركن في الحروب رسميًا بحجم مشاركة الرجال. لقد استنتج داير أن القتال كان خاصًا بالرجال لأنهم أكثر ملائمة له بسبب قوتهم الجسدية ولتحررهم من عبء الولادة، وقد شارك تقريبًا كل ذكر حي لآلاف الأجيال في إحدى الحروب... **لقد كان الرجال متخصصين في الصيد ووظائف المحارب لهذه الأسباب الجسدية نفسها وذلك قبل اختراع الحروب الحضارية بزمن طويل**[1].

لقد ناقش ويليامز مشكلة دونية الذكر، وخاصة فيما يتعلق بنسب الوفيات المرتفعة مقارنة مع الإناث، واستنتج أنه:

«في كل لحظة من لحظات الحياة... تزداد المخاطر التي يخوضها الجنس المذكر. لكن احتمالات فوزه أكبر، وذلك إما بالتوالد المباشر أو بالسيطرة المطلقة على النساء والعشيرة. كذلك احتماليات الموت أو العجز عن الزواج... يجب أن يقامر برنامج تطور الذكر ضد الصدفة

(1) Gwynne Dyer, War (New York: Crown Publishers, Inc., 1985), 17.

ساعياً للحصول على الوجه الرابح عند إلقاء العملة. بينما لا تحتاج الأنثىٰ إلا مسلكًا مجردًا من الاختلالات. ليس هناك أنواع ثنائية الجنس تتجاوز وفيات الإناث فيها الذكور، ويحصل ذلك فقط في الأنواع ذات الإناث الخنثىٰ التي بدون ذكور»[1].

استنتج العديد من التطوريين أن المهارة تلعب دورًا كبيرًا جدًا في الصيد والقتال مقارنة مع العمل المنزلي الذي تؤديه النساء. وبالتالي: «لأن نشاطات النساء تتطلب مهارات أقل من نشاطات الرجال... ولأن الأدلة المتوفرة تشير إلىٰ أن قدرات الرجال علىٰ الصيد متنوعة أكثر من قدرات النساء في جمع الثمار، وكما في حالة العنف، يعمل الانتقاء بشكل أشد بين الذكور مقارنة مع الإناث»[2]. وبكلمات ويليامز، «في كل لحظة من لعبة الحياة تزداد المخاطر التي يخوضها الجنس الذكري»[3]. توضح العبارة التالية التي قالها جورج كم كان معتقد دونية النساء مهمًا للتطور:

«يكمن الفارق الرئيسي بين الرجال والنساء في قدرتهم الفكرية، إذ أن «قدرة الرجال علىٰ تحقيق منزلة أعلىٰ تفوق قدرة النساء في أي مجال كان، سواء كان يتطلب تفكيرًا أو منطقًا أو تخيلًا عميقًا أو مجرد استخدام للحواس واليدين». يرىٰ داروين أن هذه الاختلافات البارزة لم تنجم عن استخدام أو عدم استخدام ووراثة الصفات المطلوبة، فلم

---

(1) Williams, 138-139.
(2) Donald Symons, The Evolution of Human Sexuality, (New York: Oxford University Press, 1980), 162.
(3) Williams, 138.

يقتصر العمل الجاد وتطور العضلات على الرجل «... فقد كان عمل النساء في المجتمعات الهمجية بنفس شدة عمل الرجل أو أشدّ»... فالتفوق الفكري لذكور البشر خلقي، ولكن كيف أصبح خلقيًا. عن طريق الانتقاء الجنسي حسب قول داروين وليس باختيار النساء»(1).

لقد كان الانتقاء الجنسي لب فكرة التطور، وكانت دونية المرأة برهانه الأساسي وشاهده الرئيسي. لقد استنتج داروين أن **الذكور كانوا مثل مربي الحيوانات، يصقلون المرأة حسب رضاهم كما يفعل المربون**(2). كان الرجال متخصصين بالصيد و«**كانت النساء متخصصات في مجال «الجمع» في ذلك الاقتصاد البدائي**»(3). أزالت الحرب الرجال الضعفاء، وبقي الأقوياء فقط الذين عادوا للمنزل وكانوا قادرين على الإنجاب.

كان مذهب دونية النساء برهانًا أساسيًا للتطور بتأثير الانتقاء الطبيعي وقد سَلَّم به معظم العلماء في أواخر القرن التاسع عشر.

يزعم غويلد أنه لم يكن هناك إلا قلة من العلماء الذين آمنوا بالمساواة، في حين أن **كل العلماء تقريبًا اعتقدوا بأن السود والنساء والمجموعات الأخرى أدنى فكريًا وأنهم أقرب للحيوانات الدنيا**(4). ولم يردد أي من هؤلاء العلماء هذه الأحكام المسبقة ببساطة دون دراسة

---

(1) George, 74.
(2) Richards, Darwin, 78.
(3) Dyer, 122.
(4) Gould, 84.

وتفكير مكثفين حول نظرية التطور. لقد حاولوا الإثبات إثباتًا علميًا أن النساء أدنىٰ وذلك بإنجاز مقدارٍ كبير من البحوث التجريبية.

وحتىٰ اليوم مازال هناك بعض علماء التطور يتقبلون هذه الاستنتاجات[1]. يلاحظ جيبونز أن كثيراً من علماء التطور استنتجوا أن هناك جذورٌ للاختلافات الفكرية بين الجنسين في ضغوط التطور القوية عليهما أثناء فترة قبل التاريخ عندما كان الدماغ يتمدد بسرعة[2]. لقد كان الاستنتاج بأن النساء أدنىٰ تطوريًا من الرجال ناحيةً أساسيةً ودليلًا حصينًا لنظرية التطور، خاصة لمساهماتيَ داروين الرئيسيتين: الانتقاء الجنسي والانتقاء الطبيعي. كما كان هناك آثار علىٰ السياسة الاجتماعية لتدريس هذه النظرة أيضًا:

بالنسبة لداروين، فإن الاختلافات الفكرية بين الجنسين، مثل الاختلافات الجسدية، يمكن التنبؤ بها بشكل كامل علىٰ أساس اعتبار التأثير طويل الأمد للانتقاء الطبيعي والجنسي... فقد شحذ ذكاء الذكر باستمرار من خلال النضال لحيازة الإناث (وهذا هو الانتقاء الجنسي) ومن خلال الصيد والأنشطة الذكورية الأخرىٰ مثل الدفاع عن الإناث والصغار (وهذا هو الانتقاء الطبيعي). ووفقًا لمفاهيم داروين... «تفوق الرجل في نهاية المطاف علىٰ المرأة».

وعلىٰ هذا الأساس، ناقش داروين في كتاب النشوء بأن التحاق النساء بالتعليم العالي في الجامعات، وهو أمرٌ كان محل جدالٍ شديد

(1) Shields.
(2) Ann Gibbons, "The Brain as 'Sexual Organ''.Science, Aug. 30, 1991, 958.

في العصر الفيكتوري لإنكلترا، لن يكون له تأثير طويل الأمد على المسار التطوري لذكاء الذكر المتزايد... سيتعزز ذكاء الذكر دائمًا **بوساطة الكفاح التنافسي الشديد بين الذكور الضروري للحفاظ عليهم وعلىٰ عائلاتهم، «وسيعزز هذا الأمر الحفاظ علىٰ قواهم العقلية وزيادتها، وبالتالي يعزز عدم التساوي بين الجنسين»**[1].

لم يُقَدم داروين أسبابًا بيولوجية لدعم وجهة النظر التي تم الاعتقاد بها لفترة طويلة علىٰ مدىٰ التاريخ. استنتج تافريس أن العلماء اعتقدوا علىٰ مدىٰ قرون أن «**معظم أجزاء الجسم يمكن تبديلها بين الرجال والنساء بصورة كاملة باستثناء الأعضاء التناسلية التي لم تكن متشابهة، ورغم ذلك فإن أعضاء النساء تشابه أعضاء الرجال إذا قلبت**»[2]. مع قدوم داروين، حدث تغير جذري:

حيث بدأ العلماء في القرن التاسع عشر بمهاجمة هذه الفرضية في كافة المجالات، والتأكيد علىٰ الهوة بين الطبيعة المذكرة والمؤنثة جسديًا وعقليًا. وخلصوا إلىٰ أن الاختلافات بين أجساد الذكور والإناث كانت واسعةً جدًا، بسبب توقف تطور الأنثىٰ عند مرحلة تطورية أدنىٰ. حيث قالوا بأن النساء يمكن أن توضع في سلم التطور **مع الأطفال والقرود والبشر** «البدائيين». وحتىٰ الرسوم التوضيحية لهيكل الأنثىٰ عَكَسَت هذا المعتقد في دونية النساء. **حيث رسمت**

(1) Richards, Real Charles Darwin, 886-887.
(2) Carol Tavris, The Mismeasure of Women: Why Women Are Not the Better Sex, the Inferior Sex, or the Opposite Sex (New York: Simon and Schuster, 1992), 97.

هياكل النساء بجماجم صغيرة وأحواض كبيرة لتأكيد فكرة ضعف النساء فكريًا وأن وظيفتها الرئيسية هي الإنجاب[١].

ولإظهار أن النساء أدنىٰ من الذكور، بدأ العلماء في إثبات أن قدرة دماغ الإناث أقل. فقد حاولوا في البداية توضيح صغر سعة الجمجمة عن طريق قياس الجماجم، والقيام بذلك أمر سهل. ومن **ثم أثبتوا أن سعة الجمجمة تتعلق بالذكاء، وهي مهمة أكثر صعوبة[٢].**

شرح داروين مبررات هذا النهج لإثبات الدونية:

«بتطور القدرات العقلية المختلفة تدريجيًا، سيصبح الدماغ أكبر بالتأكيد... إن حجم دماغ الإنسان الكبير بالنسبة لجسده، مقارنة مع نسبة حجم دماغ الغوريلا أو الأورانجتان لجسمهما، مرتبط بشكل كبير بزيادة قواه العقلية...هناك علاقة وثيقة لدىٰ الإنسان بين حجم دماغه وبين تطور الصفات الفكرية، ويدعم هذه العلاقة مقارنة الجماجم بين الأعراق الهمجية والأعراق المتحضرة، وبين البشر القدامىٰ والمعاصرين، وبمقارنة كامل سلسلة الفقاريات»[٣].

كان بول بروكا أحد أبرز الباحثين المبكرين الذين استخدموا علم الجماجم لتأكيد الدونية الفكرية للمرأة (١٨٢٤-١٨٨٠)، وهو جراح وأستاذ في كلية الطب في باريس، ومن بين أرقىٰ علماء الانثروبولوجيا في أوروبا.

---

(١) المرجع السابق Ibid. ص (٩٧).

(2) Leigh Van Valen, "Brain Size and Intelligence in Man," American Journal of Physical Anthropology 40, (1974): 417-423.

(3) Darwin, Descent of man, 54.

وكان رائدًا في تطوير علم الانثروبولوجيا المادية، وأوجد في عـام ١٨٥٩ إحدىٰ أرقىٰ جمعيات أوربا - علماء الأنثروبولوجيا[1]. لقد كان الشاغل الرئيسي لهـذه الجمعيـة قيـاس مختلـف الصفات البشرية بمـا فيها الجماجم «لوصف الجماعات البشرية وتقدير قيمتها النسبية»[2].

استنتج بروكا أن الدماغ أكبر عند البالغ مقارنـة بالمسن عمومـًا، وعند الرجال مقارنةً بالنساء، وعند الرجال البارزين مقارنة مع الرجال ذوي الموهبـة الأقـل، ولـدىٰ الأعـراق المتفوقـة مقارنـة مـع الأعـراق المتدنية... وأن الأشياء الأخرىٰ متساوية، باستثناء علاقة ملحوظة بين تطور الذكاء وبين حجم الدماغ[3].

لـم يكـن بحـث بروكـا سـطحيًا، بـل شـاملًا وعميقًـا. وكمـا ذكـر غويلد، لا يمكن للمرء قراءة أبحاث بروكا دون احترام حرصه في إنتاج البيانات[4]. لقد كان بروكا مهتمًا بشكل خاص بالمقارنة بين الجمـاجم والقدرات الذهنية بين النساء والرجـال: «ومـن بـين كـل مقارناتـه بـين المجموعات، كانت الكمية الأكبر من المعلومات التي جمعهـا بروكـا عن مقارنة أدمغة النساء مـع أدمغـة الرجـال..»[5] واسـتنتج أن «الحجـم الصغير نسبيًا لدماغ الأنثىٰ يعتمد جزئيًا علىٰ دونيتها الفكرية»[6]. استنتج

---

(1) Elizabeth Fee, "Nineteenth-Century Craniology: The Study of the Female Skull,"Bulletin of the History of Medicine, 53 (1979): 415.
(2) Gould, 83.
(3) Quoted in Gould, 83, 188.

(٤) المرجع السابق Ibid ص (٨٥).

(٥) المرجع السابق Ibid ص (١٠٣).

(6) Quoted in Gould, 104.

بروكا أيضًا ازدياد التفاوت بين أدمغة النساء والرجال عبر الزمن في عملية مستمرة حتىٰ الوقت الحاضر. حيث كان الاختلاف المتزايد **«نتيجة اختلاف ضغوط التطور علىٰ الرجال المسيطرين والنساء المنفعلات»**(١).

لإثبات أن الإناث أدنىٰ من الذكور، سعىٰ العلماء «لإثبات» أن سعة دماغ الأنثىٰ أقل.

وفي دراسة موسعة لأعمال بروكا، خلص غولد إلىٰ أن استنتاجاته كانت **«نفس الافتراضات المشتركة للذكور البيض الناجحين في زمنه، فهم في القمة في حين النساء والسود والفقراء أدناهم»**(٢). كيف وصل بروكا إلىٰ هذه الاستنتاجات؟ يجيب غولد علىٰ هذا السؤال **«بأن حقائقه كانت موثوقة، ولكنها جمعت بانتقاء وتحيز ومن ثم تم التلاعب بها بدون وعي لخدمة الاستنتاجات المفترضة مسبقاً»**(٣). وهي أن التطور تنبأ بأن النساء أدنىٰ فكريًا بشكلٍ واضح من الرجال. لكن أدت أبحاث بروكا وتغير الجو الاجتماعي لاحقًا إلىٰ أن يُعدل رأيه مستنتجًا بأن الثقافة أكثر أهمية مما ظن سابقًا(٤).

---

(١) المرجع السابق Ibid ص (١٠٤).

(٢) المرجع السابق Ibid ص (٨٥).

(٣) المرجع السابق Ibid.

(4) Havelock Ellis, Man and Women: A Study of Secondary and Tertiary Sexual Characteristics. (London: Heineman, 1934).

آراء الداروينيين الآخرين...

كان التطوريون الآخرون مقتنعين بأن هناك عدة اختلافات بين أدمغة الذكور والإناث بما في ذلك الفصوص الجبهية. فهي عند الإناث أقل تطورًا والعصبونات مختلفة والألياف المخية ألين وأطول وأسطوانية أكثر. أما الفصوص الجبهية عند الذكور فهي متطورة أكثر «في كل شيء» مقارنة مع الإناث، وهذا الاختلاف الجنسي موجود حتىٰ عند الأجنة التي مازالت في الأرحام[1]. هناك اختلافات أخرىٰ تشير أيضًا إلىٰ تفوق الذكور، فهم متفوقون في تعقيد وتشكيل التلافيف والأثلام والاختلافات في الجسم الثفني وفي سرعة تطور قشرة مخ الجنين[2].

لقد عرض العديد من العلماء البارزين من جيل داروين هذه الآراء. مثل غوستاف لوبون (١٨٤١-١٩٣١)، مؤسس النهج العلمي لعلم النفس الاجتماعي، ورائد في مجال السلوك الجمعي، وكتابه الحشد (١٨٩٥)، معروف لكل طلاب العلوم الاجتماعية، وهو دراسة تقليدية لسلوك الجماهير. فقد كتب:

«في الأعراق الأكثر ذكاءً، هناك عدد كبير من النساء اللواتي حجم دماغهن أقرب إلىٰ حجم دماغ الغوريلا من دماغ الذكر المتطور. إن هذه الدونية واضحة جدًا بحيث لا يمكن أن يعترض أحدٌ عليها،

---

(1) Shields, 390.

(٢) المرجع السابق Ibid ص (٧٤٠- ٧٤٢).

ودرجتها فقط هي ما يستحق المناقشة... تمثل المرأة الأشكال الأكثر دونية من تطور الإنسان وهي أقرب إلىٰ الأطفال والمتوحشين منها إلىٰ إنسان بالغ ومتحضر. تتفوق المرأة في التقلب والتناقض وغياب الفكر والمنطق والعجز عن التفكير. يوجد دون أدنىٰ شك بعض النساء المتميزات، لكن احتمال وجودهن ضئيلٌ كاحتمال ولادة أي مسخ، كاحتمال مثلًا ولادة غوريلا برأسين ويمكننا بالتالي إهمال هذه الحالات تماماً»[1].

كان قياس حجم الدماغ ذا أهمية بالغة في إثبات دونية المرأة بسبب العلاقة المفترضة بين حجمه والذكاء، وتم اعتبار هذه العلاقة مهمة جدًا من وجهة النظر البيولوجية والتطورية... فقد كان هناك تأثير سببي مباشر بين الذكاء وحجم الدماغ، وذلك من خلال الانتقاء الطبيعي في مسار التطور البشري. وكانت الميزة الانتقائية التطورية لزيادة حجم الدماغ هي زيادة تعقيد الوظيفة الفكرية. **«الانتقاء الطبيعي للذكاء بقوته المقدرة حالياً كافٍ لتفسير معدل الزيادة السريع لحجم الدماغ في التطور البشري»**[2].

وجدت دراسة حديثة أجراها فان فالين واعتبرها جينسن **«المراجعة الحديثة الأكثر شمولًا ومنهجية لكافة الأدلة المتعلقة بحجم الدماغ والذكاء»** أن أفضل تقدير للعلاقة ضمن الجنس بين حجم

---

(1) Quoted in Gould, 104-105.
(2) Arthur Jensen, Bias in Mental Testing (New York: The Free Press, 1980), 361.

الـدماغ ومـستوى الـذكاء «**يمكـن أن تـصل إلـى ٠.٣**»[1]. ولـسوء حـظ التطوريين القدماء، فإن نسبة ارتباط ٠.٣٪ مسؤولة عـن ٩٪ فقـط مـن الاختلافات بين الجنسين، مما يدل على أن هذا الاختلاف ناجمٌ غالبًا عن انحياز التجارب والثقافة ولـيس عـن الدونيـة البيولوجيـة. بـل لقـد جادل شالتز أن «**أدمغـة النـساء أدمغـة أكـبر بكثـير مـن الرجـال**»[2] عنـد مقارنة طول الرجال والنساء مع حجم الدماغ.

الانقلاب على مذهب دونية المرأة...

رغـم الاعتقـاد بمـذهب دونيـة المـرأة لفـترة طويلـة مـن الـزمن، **تزايدت الدراسات العلمية لبحـث هـذا الموضـوع منـذ الـسبعينيات**[3]. حيـث حفـزت الحركـة النـسوية ظهـور انتقـادات حديثـة لاسـتنتاج أن الإناث أقل ذكاء لأن دماغهن أقـل حجمًـا. وأظهـرت هـذه الانتقـادات أخطاءً كبيرة في الأدلة التي «**أثبتت**» دونية المرأة وأظهـرت بـشكل غـير مباشر، **أخطاء جوانب رئيسية من نظرية التطـور ذاتهـا**[4]. فمـثلاً، جـادل فيشر بأن كل نظرية الانتقاء الطبيعي هي في محل شك، ونقلًا عن كلام تشومسكي:

«**إن العمليـة التـي وصـل بهـا العقـل البـشري إلـى حالتـه الراهنـة**

(1) Ibid., 361 and Van Valen, 417.
(2) Dolph Schluter, "Brain Size Differences," Nature 359, Sept. 17, 1992, 181.
(3) Fee, 415.
(4) Flavia Alaya, "Victorian Science and the 'Genius' of Women," Journal of the History of Ideas 38 (1977): 261-280.

المعقدة... غامضة جدًا. من المريح أن نعزو هذا التطور إلىٰ «الانتقاء الطبيعي»، لكن طالما ندرك عدم وجود دليل حاسم لهذا الطرح، فلن يقودنا إلىٰ شيء أكثر من الإيمان بأن هناك تفسيراً طبيعياً ما لهذه الظواهر»[1].

كما أن الأبحاث الجينية الحديثة قوضت العديد من الجوانب الرئيسية لفرضية داروين، وخاصة نظريته في الانتقاء الجنسي. فعلىٰ عكس الشرط المطلوب لنظرية داروين، «لا تورث الجينات في خطوط جنسية». لأن «ذرية الذكور تتلقىٰ الجينات من كلا الوالدين، الأب والأم»[2] باستثناء الجينات القليلة الموجودة علىٰ الصبغي Y. فحتىٰ لو عمل الانتقاء الطبيعي بشكل مختلف بين الذكور والإناث، فسينقل الذكور هذه الجينات المتفوقة لأبنائهم وبناتهم علىٰ حد سواء. لم يكن لداروين ومعاصريه أي علم تقريبًا بالوراثة، لكن ذلك لم يثنيهم عن تقديم استنتاجات واسعة حول التطور. زعم داروين أيضًا افتراضًا متهورًا بقوله: «تقتصر الخصائص التي تكتسبها الأنواع الحية من الانتقاء الجنسي عادة علىٰ جنس واحد»[3]. لكنه اعترف في مكان آخر بأن النساء «يمكن أن تنقل معظم خصائصها بما في ذلك بعض جمالها

(1) Noam Chomsky, Language and Mind (New York: Harcourt, Brace and World, 1972), 97.

(2) Elizabeth Fisher, Woman's Creation: Sexual Evolution and the Shaping of Society(Garden City, NY: Anchor Press/Doubleday, 1979),112.

(3) John Hurrell Crook, "Sexual Selection, Dimorphism, and Social Organization in the Primates," in Campbell (Ed.), Sexual Selection and the Descent of Man 1871-1971 (Chicago: Aldine Publishing Company, 1972).

إلىٰ أعراس كلا الجنسين» وهي حقيقة تجاهلها في معظم كتاباته[1].
بل لقد ادعىٰ أيضًا أن العديد من الصفات مثل الذكاء وقدرات التخيل والتفكير المنطقي «تنتقل كاملة إلىٰ الأبناء الذكور مقارنة بالإناث»[2].

قوضت الأبحاث الجينية الحديثة الجوانب الرئيسة المتعددة من فرضية داروين، وخاصة نظرية الانتقاء الجنسي.

استطاع داروين قبول الرأي القائل بتفوق جنس الذكور، بسبب اعتقاده بنظرية شمولية التخلق التي تنص علىٰ إمكانية وراثة بعض الخصائص المكتسبة. لم يتخلىٰ داروين عن معتقده حتىٰ عندما أدرك العديد من أتباع المذهب الطبيعي ضعف نظرية شمولية التخلق[3]. شَكَّل بحث أوغست ويزمان الضربة الحاسمة لنظرية شمولية التخلق وكافة أشكال اللاماركية الأخرىٰ، حيث وجد أن الخلايا التناسلية للحيوانات «مميزة ومتماثلة وتتمايز في مرحلة مبكرة من تطور كل من الذكور والإناث وليس هناك طريقة لخلايا الجسم لكي تؤثر علىٰ الخلايا التناسلية»[4]. وكانت الضربة الأخيرة هي النظرية الماندلية ونظرية دي فريسين عن الوراثة اللتان أثبتتا أن كلًا من الأم والأب

(1) Darwin, Descent of man, 597.

(٢) المرجع السابق Ibid ص (٥٦٥).

(3) George, 63.

(٤) المرجع السابق.Ibid

يساهمان في المعلومات الوراثية لأعراس الذكور والإناث. ومن المفارقات أن هذه الضربة الكبيرة التي دحضت نظرية تفوق الذكر لم تسبب أي رفض واسع. وظلت متداولة حتىٰ فرضت حركة الحقوق المدنية إعادة تقييم للمواقف التي كانت متأصلة جدًا في كل من النظرية العلمية والمعايير الثقافية للمجتمع.

لا ينفي علم الوراثة بشكل كامل الأسباب المستخدمة لاستنتاج أن الإناث أدنىٰ تطوريًا، فما زالت هناك بعض السمات المرتبطة بالجنس تورث بشكل طبيعي علىٰ الصبغي Y من الذكر فقط. بما أن النساء ترثن صبغيين X، تُحجب غالبًا العديد من الجينات المتنحية الضارة علىٰ أحد صبغيي X بالجينات السائدة غير الضارة الموجودة علىٰ الصبغي X الآخر.

لكن لا توجد هذه الميزة لدىٰ الذكور: فالعديد من السمات التي تحجب لدىٰ الإناث يتم التعبير عنها لدىٰ الرجال لأن الصبغي Y أو الصبغي الذكري لا يحتوي علىٰ أليلات X مقابلة غالبًا. فهو يملك جينات أقل بكثير من الصبغي X، لأنه أقصر من الصبغي X. يدل ذلك علىٰ التفوق الجيني للنساء وهو سبب انتشار الأمراض الوراثية لدىٰ الذكور أكثر من الإناث مثل عمىٰ الألوان والناعور. لكن هذه السمات يرثها الذكور من أمهاتهم وتعبر فقط إلىٰ الأبناء الذكور[1].

---

(1) Sarah Blaffer Hardy, The Woman That Never Evolved (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1981).

مساهمة داروين في التحيز الجنسي Sexism

علىٰ الرغم من أن نظرية داروين ولّدت العنصرية والتحيز الجنسي المستندين إلىٰ البيولوجيا، يرىٰ البعض أن داروين لن يوافق عليهما ولا يجوز انتقاده علىٰ نتائج نظريته. من الصحيح أن العديد من الباحثين تمادوا أكثر من داروين، خاصة نسيبه غالتون الذي استنتج من دراسته طوال حياته أن **«النساء تميل بكافة إمكانياتها لأن تكون أدنىٰ من الرجال»**[1] إلا أن ريتشاردز استنتج في مراجعة مكثفة لهذا الرأي، أن **«الثقافة الحديثة أكدت الدور المحوري الذي تلعبه العوامل السياسية والاقتصادية في تقبل نظرية التطور»** لكن الداروينيين قدموا **«الأسس الفكرية للامبريالية والحروب والاحتكار والرأسمالية ونظرية تحسين النسل والعنصرية»** والتحيز الجنسي. و**«لم تكن مساهمة داروين ضئيلة كما يروج غالبًا»**[2]. وبعد أن لاحظ فيشر أن داروين اعتقد أن عالم الاجتماع الداروني سبنسر **«كان أعظم فيلسوف حي في إنكلترا»**، فقد استنتج قوة الأدلة علىٰ التأثيرات السلبية لتعليم التطور عبر التاريخ:

«كان الأوروبيون ينتشرون في أفريقيا وآسيا وأمريكا، ويجوبون الأرض ويخضعون السكان الأصليين للبلاد بل ويرتكبون المذابح بحقهم، وقد تلاشىٰ شعورهم بالذنب. فلقد برئتهم نظريات سبنسر التطورية... وكان كتاب أصل الأنواع لداروين المنشور عام ١٨٥٩

---

(1) Shields, 743.
(2) Richards, Darwin, 88.

بمثابة الضربة القاضية. لم تكن الاختلافات العرقية والطبقية والقومية الناتج النهائي للتطور والانتقاء وبقاء الأفضل فقط وإنما أثر أيضاً على كل عاطفة إنسانية مفردة»[1].

توافقت استنتاجات البيولوجيا الداروينية حول الإناث «مع الاستنتاجات العلمية السائدة في ذلك الوقت. فمن الأنثروبولوجيا إلى علم الأعصاب، أوضح العلم أن خصائص الإناث في العهد الفيكتوري من السلبية والألفة والأخلاق العفيفة (نشاط جنسي أقل) متأصلة في بيولوجية الأنثى»[2] وبالتالي فقد استنتج كثيرون أن «التاريخ التطوري وهب النساء جينات الرعاية وتربية الأولاد ومنح الرجال صفات الخبرة»[3] أضاف ستاينم أنه وبالمثل، فإن الصفات السلبية والاتكالية والطفولية «للأعراق الغامقة» (والتي دعيت آنذاك بعبء الرجل الأبيض) كانت جزءًا من نصيبها البيولوجي. اتفق التطورين أيضًا أن سبب ذلك هو: أن الرجال غير القوقازيين والنساء من كافة الأعراق أدنى في ميزان التطور. ففي حالة العرق فسبب ذلك ببساطة هو مدة زمن التطور... أما في حالة النساء القوقازيات - اللواتي تطورن بنفس فترة تطور نظرائهن الرجال - فهناك منطق آخر. فقد كان انخفاض تعقيد الجهاز العصبي والذكاء لدى الإناث عبارة عن تكيفات تطورية

---

(1) Fisher, 116.
(2) Gloria Steinem, Revolution from Within: A Book of Self-Esteem (Boston: Little, Brown and Company, 1992), 133.
(3) Ruth Hubbard, Mary Sue Henifin and Barbara Fried, Women Look at Biology Looking At Women: A Collection of Feminist Critiques (Cambridge, MA: Schenkman Publishing Co., 1979), 208.

لألم الولادة والأعمال المنزلية المتكررة والنشاطات الجسدية غير الفكرية الأخرىٰ. بالطبع أيضًا الإناث من الأعراق «الأدنىٰ».... **أدنىٰ من قرنائهن الرجال**[1].

كان هذا الاستنتاج حول دونية المرأة التطورية متأصلاً جدًا في البيولوجية، واستنتجت مورغان أن المثقفين والمفكرين في مجال حقوق المرأة اتجهوا إلىٰ «**الانصراف عن كامل موضوع البيولوجية والأصول**» علىٰ أمل أن يتمكنوا من تجاهله و«**الأمل بأن الأمور ستكون مختلفة في المستقبل**»[2]. **تجاهلت النساء اللواتي كتبن في هذا الموضوع بشكل كبير نظرية دونية المرأة الداروينية**[3]. لكن مورغان أكدت عدم إمكانية تجاهل البيولوجية التطورية ببساطة، لأن الاعتقاد «**بميراث الأدغال وتطور الإنسان كصياد للحوم ترسخ في العقل البشري كترسخ نظرية الخلق**»، ولأن الإنسان قد «**بنىٰ بناء نظريًا جميلًا ووضع نفسه علىٰ قمته، ودعمه بمنظومة قوية من الحقائق المُصدقة علميًا**». ورأت أنه يجب إعادة تقييم هذه «**الحقائق**» من جديد وأن العلماء «**ضلّوا أحيانًا**» ليس بسبب تحيزهم فقط بل أيضًا بسبب المحرمات الفلسفية[4]. لقد جادلت بوجوب التصدي للنظرة التطورية

(1) Steinem, 133-134.
(2) Morgan, 2.
(3) For example, see Lynn Margulis and Dorion Sagan, Origins of Sex: Three Billion Years of Genetic Recombination (New Haven: Yale University Press, 1986) and Nancy Tanner and Adrienne Zihlman, "Women in Evolution. Part I: Innovation and Selection in Human Origins," Signs: Journal of Women in Culture and Society 1, no. 3 (1976): 585-608.
(4) Morgan, 2-3.

الشهيرة بأن النساء أدنىٰ بيولوجيًا من الرجال. وفي كتابها وعشرات الأعمال الأخرىٰ، نقض الباحثون ببراعة استنتاج دونية النساء بيولوجيًا بالمجمل مقارنة مع الذكور.

ناقش كثير من علماء البيولوجية في القرن التاسع عشر دونية المرأة، لأنهم اعتقدوا بقوة أن «**عنف المرأة غير الملائم هدد بإنتاج مزيج مضطرب من الأعراق وبتشتيت علمية التطور المرتبة**»[1] في حين تبنىٰ باحثون آخرون النهج الذي يقول بأن التنظيم الاجتماعي للقرن الأخير وعوامل أخرىٰ قد أنقصت ببطء من التفاوت البيولوجي الجنسي الموجود[2].

تأثير الثقافة على نظرة التطور للنساء...

كان للثقافة أهمية كبرىٰ في تشكيل نظرية داروين. فمن الواضح وجود آراء الطبقة المتوسطة في العصر الفيكتوري حول الإنسان في كتاب أصل الإنسان والكتابات الأخرىٰ للتطوريين. وكما ناقش ريتشاردز:

«**امتلأت نسخة داروين لتطور الإنسان بالافتراضات الفيكتورية لحتمية وصواب دور المرأة كمؤدبة منزلية ومربية ولدور الرجل كرب الأسرة القوي والأب الغيور. لقد كانت الأسلاف الإناث... أمهات خجولات جنسيًا اتصفن بالعطاء والإيثار في حين أن أسلافنا الذكور**

(1) Fee, 415.
(2) Elisabeth Mann Borgese, Ascent of Women (New York: Braziller, 1963).

كانوا منافسين بشكل طبيعي، وطموحين وأنانيين، ولا يخالف داروين ذلك حيث كتب في كتاب أصل الإنسان: «الرجل خصم للرجال الآخرين، يسعد بالمنافسة... لقد كان ذلك... النظام الطبيعي للأشياء، تماما كما كان الرجل أكثر ذكاء من المرأة طبيعيًا»، وقد وضح داروين ذلك عبر حجته بندرة النساء المثقفات والمهنيات البارزات: «يظهر الفرق الرئيسي في القوىٰ الفكرية لكلا الجنسين بتحقيق الرجل مكانَة أعلىٰ في كل المجالات، مقارنة بالنساء سواءً في المجالات التي تتطلب تفكيرًا عميقًا أو منطقًا أو تخيلًا أو مجرد استعمال لليدين والحواس»[1].

وكما ساهمت معتقدات الدارونية كثيراً في إعاقة حقوق الإنسان، ساهمت أيضًا كثير من القوىٰ الأخرىٰ في معتقد دونية المرأة:

«قبل داروين بفترة طويلة، نبذ «التطوريون» القدماء المرأة إلىٰ دور الخضوع والدونية في كل من الثقافات الدينية الإلحادية وعبادة الطبيعة (انظر الصورة الشائعة لرجل الكهف الذي يسحب قرينته من شعرها بالإضافة لدور النساء الخاضع الموجود عمليًا في كافة الأديان الوثنية والعرقية)»[2].

وقد ساهمت المفاهيم الداروينية للتفوق الذكوري أيضًا في زيادة علمنة المجتمع وقبول الرأي القائل بأن قوانين الطبيعة خلقت البشر وليس التوجيه الإلهي[3]. كما أكد ريتشاردز علىٰ أهمية المذهب

---

(1) Richards, Real Charles Darwin, 885.
(2) Henry Morris, The Long War Against God (Grand Rapids, MI: Baker Book House, 1989), 135.
(3) George.

الطبيعي naturalism في ظهور مذهب دونية المرأة:

«لم تكن الموجة المعاصرة المعادية للنسوية الدافع لرأي داروين عن الاختلافات الجنسية في كتابه أصل الإنسان... لكن هذا الرأي كان أساسيًا للتفسير الطبيعي لتطور الإنسان. فما دفعه للإصرار على الأساس البيولوجي للاختلافات العقلية والأخلاقية هو دعواه المزعومة بنشوء الخصائص النفسية والأخلاقية الإنسانية بعمليات التطور الطبيعية التي أكسبت الإنسان هذه الخصائص من الطبيعة وليس من التربية»[1].

إحدى الطرق الرئيسية لمهاجمة الاستنتاج التطوري لدونية الأنثى هو مهاجمة أدلة الداروينية بحد ذاتها. فعلى سبيل المثال، أشارت فيشر أنه من الصعب افتراض نظريات أصل الإنسان عن تنظيم الدماغ الفعلي لمستحاثات أجدادنا المفترضين بعدد قليل فقط من الجماجم المشربة بالحجر الجيري - ناهيك عن أن معظمها مسحوق ومحطم، وما عدا ذلك فقد تبدل بعد مرور ملايين السنين [وللوصول إلى أي استنتاجات صحيحة على أساس هذا]... فالدليل على هذا الأساس يبدو مستحيلًا»[2].

وتضيف هوبارد «إن الصور النمطية للجنسين عند داروين منتشرة جيداً أيضًا في أبحاث التطور البشري المعاصرة. وهو مجال تقل فيه الحقائق وتكون العينات مفصولة بمئات آلاف السنين إلى حد وجود

(1) Richards, Darwin, 97.
(2) Fisher, 113.

فسحة قصوىٰ تعطي مجالًا لانحياز المحقق»[1] ثم ناقشت «الجهل الساحق» حول تطور الإنسان وادعت أن العديد من المعتقدات «المقبولة» حاليًا هي محض تخمين.

إن العديد من المساعي لدحض الرأي التطوري القائل بأن النساء أدنىٰ فكريًا تهاجم جوهر نظرية التطور ذاتها. يجب أن توجد مجموعة بشرية دنيا من أجل أن يحظىٰ الانتقاء الطبيعي بشيء ينتقيه. شيبرد مثالٌ علىٰ هذه المساعي حيث قدم نقدًا قاطعًا مقنعًا لكل من الانتقاء الجنسي والطبيعي والداروينية ككل، في تقييمه لنظرية دونية الأنثىٰ التطورية[2].

رغم أن معتقدات الداروينيين عرقلت حقوق الإنسان كثيرًا، فقد كانت هناك العديد من القوىٰ الأخرىٰ التي أثرت علىٰ معتقد دونية المرأة.

يمكن استخدام التطور لمحاولة إثبات تفوق الذكر، لكن يمكن استخدامه لإثبات العكس. إذ يترك الدليل التطوري «مجالًا واسعًا للتأويل الفردي» لدرجة أن بعض المؤلفين الداعمين للنسوية feminists وغيرهم قرؤوا البيانات بطريقة تظهر تفوق النساء التطوري «باستخدام نفس القصة التطورية للوصول إلىٰ الاستنتاج المعاكس

(1) Ruth Hubbard, "Have Only Men Evolved?" in Women Look at Biology Looking At Women, Ed. by R. Hubbard, et al., (Cambridge, MA: Schenkman Publishing Co., 1979),26.
(2) Linda Jean Shepherd, "Lift@g the Veil: The Feminine Force" in Science, (Boston: Shambhala, 1993).

تمامًا»[1] أحد الأمثلة البارزة هو الكتاب الشهير لمونتاجو، التفوق الطبيعي للنساء[2]. بل لقد جادلت بعض عالمات البيولوجيا بنظرية تطور مرتكزة علىٰ النساء مستنتجات بذلك أن المرأة هي جذع تاريخ التطور أما الرجل فهو مجرد غصن فرعي في الشجرة وبرعم مطعم[3].

«حاول الآخرون دمج إصلاح علم التطور الداروينى مع مثاليات النسائية المعاصرة»[4] استنتج هابغود أن خدمة الأنثىٰ هو غرض تطور الذكور، ورأىٰ أن «الذكورية لم تكن لتتطور من لا شيء إنما لأنها منتقاة». فقد لاحظ وجود العديد من الأنواع التي تعيش دون ذكور، وحقيقة أنها لا تعيش بدون جنس تظهر أن «الذكور غير ضروريين» في بيئات معينة[5]. إن المرأة من تنجب، والبقاء علىٰ الحياة مهم في التطور فقط لدرجة تعزيز التكاثر. وبالتالي فقد جادل هابغود أن نظرية التطور ستنتهي إلىٰ أن الذكور تطوروا فقط ليخدموا الإناث من أجل ولادة الأطفال وتغذيتهم. ويشمل ذلك ضمان أن الإناث ستحمل وضمان العناية بالذرية.

فهناك نسخة معدلة أخرىٰ من النظرية وهي أن النساء كانت في وقت من التاريخ غير متفوقة فحسب، بل مسيطرة أيضًا. تجادل هذه

---

(1) Love, 124.
(2) Ashley Montagu, The Natural Superiority of Women (New York: Lancer Books, 1952).
(3) Mary A. Hill, Charlotte Perkins Gilman: The Making of a Radical Feminist 1860-1896 (Philadelphia: Temple University Press, 1980).
(٤) المرجع السابق Ibid ص (٢٦٣).
(5) Fred Hapgood, Why Males Exist; An Inquiry Into the Evolution of Sex (New York: William Morrow and Company, Inc., 1979), 24.

النظرة أن المجتمع كان أموميًا أساسًا (من الأم) ونجمت الأبوية عن عدة عوامل حدثت مؤخرًا نسبيًا[1]. وبالطبع فإن النظريات التي تفترض دونية الذكور التطورية تعاني من المشاكل الكثيرة ذاتها التي تعاني منها النظريات التي تفترض دونية النساء.

استخدام الداروينية لتبرير الصراع مع الدين...

يرى البعض أنه يجب إحياء العديد من الآراء التي وضعها داروين وترسيخها لتبرير نظام أخلاقي مدعوم بنظرية التطور[2]. فعلى سبيل المثال، ذكر فورد بأن «فكرة وجوب إلغاء التحيز الجنسي... هي فكرة خاطئة... فكثيرٌ من التمييز الجنسي المُهاجم الذي نراه في مجتمعاتنا... هو فعليًا نتيجة حتمية للقيود التي وضعها تطورنا. هناك عوامل مهمة تجعل من الرجل الجنس الأكثر عدوانية»[3] ذكر ايبرهارد مثلًا أن العدوانية الجسدية للذكور مبررة بالانتقاء الجنسي ولاحظ أن: «الذكور أكثر عدوانية من الإناث في النشاطات الجنسية التي تسبق التزاوج» (ناقش داروين ذلك مطولًا عام ١٨٧١ وتم تأكيده عدة مرات منذ ذلك الوقت...»[4].

---

(1) Reed.

(2) Steven Goldberg, The Inevitability of Patriarchy: Why the Biological Difference Between Men and Women Always Produces Male Domination (New York: William Morrow & Company, Inc., 1973).

(3) Brian J. Ford, Patterns of Sex: The Mating Urge and our Sexual Future (New York: St.Martin's Press, 1980), 8.

(4) William G. Eberhard, Sexual Selection and Animal Genitalia (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1985), 67.

وعلاوة علىٰ ذلك، فإن الاستنتاج «واسع القبول الآن... **بأن الذكور من معظم الأنواع أقل انتقائية وعفةً في العلاقات الجنسية لأن استثمارهم أقل في الذرية**» وهو استنتاج يستخدم في تبرير تعدد النساء **اللواتي يعاشرهن الذكور**[1]. بعبارة أخرىٰ الانحلال الجنسي الذكري محتوم وراثيًا بسبب «**منفعة الذكور من الاقتران المتكرر من ناحية تطورية، ولا ينطبق ذلك علىٰ الإناث**»[2]. فكلما اقترن الذكر بإناث أكثر أنتج ذرية أكثر، في حين تحتاج الأنثىٰ لتقترن مع ذكر واحد لتحمل.

يستمر التطور فقط إذا انتقت الأنثىٰ الذكر الأكثر ملائمة، وهو ما توقعه داروين في نظرية الانتقاء الجنسي. ولهذا السبب لدىٰ الذكور «**لهفةٌ غير انتقائية**» للتزاوج في حين لدىٰ النساء «**سلبية انتقائية**» للتزاوج[3]. رأىٰ فوكس أيضًا أن معدلات الحمل المرتفعة بين المراهقات **ناجمة عن إرث التطور الذي يقود المراهقات لأن تحمل**[4]. وبالتالي فإن المحظورات الثقافية والدينية تجاه المراهقات غير المتزوجات محكومة بالفشل.

وهكذا بعد الاستنتاج بأن دونية المرأة سببها الانتقاء الطبيعي، يتم التلميح ضمنًا إلىٰ أن ما ينتجه الانتقاء الطبيعي أمر طبيعي، وبالتالي فهذا يعطي «**كرامة ما**» للسلوك الذي «**قد نعتبره بخلاف ذلك**

---

(١) المرجع السابق.

(2) Tavris, 214.

(٣) المرجع السابق.

(4) Robin Fox, The Red Lamp of Incest (New York: E. P. Dutton. 1980).

سلوكًا شاذًا أو حيوانيًا»[1]. مثلًا، يُعَرّف النجاح التطوري بأنه إنتاج ذرية أكثر. وبالتالي فذكور الإنسان غير مخلصة جنسيًا. ويستخدم هذا التفسير لتبرير الانحلال الجنسي وانعدام المسؤولية لدىٰ الذكور وبأن السعي لتغيير «التصميم الطبيعي الكبير» أمْرٌ غير مجدٍ. يتعارض أيضًا السعي لتغيير «نظام الطبيعة» لدونية المرأة مع «خطة الطبيعة الكبيرة». رأىٰ سيمونز بأن العديد من المواقف والاختلافات السلوكية بين الجنسين خلقية، ولا يمكن إلغاؤها بتماثل التربية للذكور والإناث[2].

ويخلص غيشلين إلىٰ أن العديد من الاختلافات السلوكية بين الجنسين ناجمة عن التطور، وبالتالي فهي جزء غير قابل للتغيير من بيولوجية البشر. حيث جعل التطور الإناث مخلصات للذكور والذكور خائنين جنسيًا، وجعل الإناث غير مصيبات والذكور مصيبين، وإن تغيير هذه الاختلافات المتطورة بيولوجيًا أمرٌ محفوف بالصعوبات[3]. أجاب ريتشاردز عن هذه الاستنتاجات:

«تم ترك أمر اكتشاف أبعاد كتابات داروين حول التطور البيولوجي والاجتماعي علىٰ النساء للعلماء المؤيدين للنسوية الذين اهتموا بتفنيد الحجج التطورية مثل حجج غيشلين. فهم مجمعون علىٰ تصنيفهم... كداعمين لرأيٍ متعصبٍ وتمييزي لقدرات وإمكانيات المرأة... والقسم الصغير من كتاب أصل الإنسان، حيث استخلص

---

(1) Symons, 61.

(٢) المرجع السابق.

(3) Ghiselin, 13.

داروين الدونية الطبيعية والخلقية للنساء من نظريته في التطور عن طريق الانتقاء الجنسي والطبيعي، يصبح بسرعة رديء السمعة في أدبيات النسويات»[1].

الاستنتاجات والآثار المترتبة على الدين...

كانت هناك تبعات اجتماعية عظيمة ومؤسفة للاستنتاج الداروويني بدونية المرأة. لقد افترض داروين أن الانتقاء الجنسي، وهو الطريقة التطورية المهمة، بالتوازي مع البيانات التي جمعها مع تابعيه الداعمة لدونية المرأة: من أهم الأدلة الرئيسية على الانتقاء الطبيعي[2]. وبالتالي فإن إنكار دونية المرأة يعني أنه يجب تعديل الآلية الرئيسة التي افترض بها أصلًا التقدم التطوري. البيانات حاليًا مشابهة للبيانات التي استخدمها داروين لتطوير نظريته، ولو أنها أكثر اكتمالاً، لكن مع ذلك فقد استنبطت استنتاجات مختلفة جذريًا. يدل هذا بوضوح على مدى خطورة الأفكار المُسبقة والنظرية في تفسير البيانات. لقد تم استنتاج دونية المرأة تطوريًا بالسبب التالي كما قاله الكاتب في Fee:

«تم تقديس القياس كأساس ضروري للعلم: وقد أراد علماء التشريح والنفس أن يكونوا «علميين» قبل كل شيء... اهتمت النظرية النفسية السابقة بالعمليات الذهنية الشائعة للعرق البشري: كان إنسان

---

(1) Richards, Darwin, 59-60.
(2) S. Sleeth Mosedale, 'Corrupted - Victorian Biologists Consider 'The Women Question,'" Journal of the History of Biology 9 (1978):1-55.

القرن التاسع عشر مهتمًا أكثر بوصف الاختلافات البشرية»[1].

لم تُبحث هذه الاختلافات البشرية لفهم ومساعدة المجتمع للتغلب عليها وإنما لدعم وتبرير النظرية التي تدعم المذهب الطبيعي ومجموعة من المعتقدات المجتمعية أيضًا. وكانت النتيجة تاريخًا مأساويًا وخاصة في مجال مكافحة العنصرية:

«من مساوئ تاريخ العلم تجاهل دور مثل هذا الجزء في العلم الدارويني. يجب إزالة الصورة التي أكل عليها الزمان وشرب لتشارلز داروين كمُنَظِر ومشاهد موضوعي ومتجرد بعيدٍ عن الشؤون الاجتماعية والسياسية لزملائه في العصر الفيكتوري الذين اختلسوا مفاهيمه العلمية لتبرير الإمبريالية ومبدأ عدم التدخل في الاقتصاد والعنصرية والتحيز الجنسي، وإفساح المجال أمام صورة تاريخية جديدة لرجل كانت كتاباته منسجمة جداً في نواح كثيرة مع وسطه الثقافي والاجتماعي»[2].

تذهب هوبارد أبعد من ذلك وتتهم داروين **«بالتحيز الجنسي الفاضح»**، وتلقي على داروين **مسؤولية رئيسية في التحيز الجنسي العلمي وقرينه الداروينية الاجتماعية**[3]. لم تظهر المعرفة المتقدمة خطأ العديد من أفكاره فحسب بل أيضًا ضررها المأساوي، ومازال العديد منها يؤثر على المجتمع بشكل مضر. وبكلمات ريتشاردز، استنتجت

(1) Fee, 419.
(2) Richards, Real Charles Darwin, 887.
(3) Hubbard.

هوبارد أن داروين «قدم الإطار النظري الذي يستطيع ضمنه علماء الأنثروبولوجيا والبيولوجية إقرار عدم المساواة الاجتماعية بين الجنسين»[1] وبالتالي، فمن المهم عرض المركزية الذكورية الداروينية ليس فقط لأسباب تاريخية وإنما لأنها مازالت جزءًا لا يتجزأ من نظريات البيولوجية المعاصرة[2].

أحد الأسباب المهمة لاستنتاج داروين رفضه أفكار الدين التي تذكر أن الله خلق الرجل والمرأة، ولم يجعل أحدهما مسيطراً على الآخر، إنما يكملان بعضهما. وبكلمات ريتشاردز، «يعتبر داروين الجنس البشري مكافئًا لأنواع النباتات والحيوانات التي شكلت مواد التطور في العالم العضوي عمومًا»، فالوسائل التي شكلت الأجناس والأعراق هي نفس العوامل التي استنتج داروين خضوع الحيوانات لها من أجل البقاء والتزاوج[3].

وبتجاهله الخالق، احتاج داروين لاستبداله بآخر. واختار البديل وهو الصراع بين الذكور للسيطرة على الإناث والطعام. فاستبدل بهدف التناغم المثالي من مذهب التوافق: التنافر الناجم عن نظريته في المنافسة – أي الاستنتاج بأن التطور يفضل الذكور الأكثر قوة وعدوانية جنسيًا لأنها تخلف ذراري أكثر عادة[4].

---

(1) Richards, Darwin, 60.
(2) Hubbard, 16.
(3) Richards, Darwin, 64.
(4) Hubbard.

أظهرت المعرفة المتقدمة أن العديد من أفكار داروين لم تكن خاطئة فحسب بل مؤذية بشكل كبير ومازالت تضر المجتمع.

لم تنبع نظرية داروين عن خلافات شخصية مع النساء، ولكن عن جهوده لشرح الخلق بدون خالق مبدع. فالموقف السلبي للمرء تجاه الجنس الآخر ينتج عمومًا من سوء تجاربه مع هذا الجنس. لكن لم يكن هذا الحال مع داروين حسب المعلومات المتوفرة لنا، فقد كان زواجه مثاليًا. وكان الدين الخلاف الوحيد الكبير بين داروين وزوجته، لكنه لم يسبب سوىٰ مشاكل طفيفة بمعظمها: إذ أن إخلاصهم لبعضهم كان تقليديًا في تاريخ زيجات الأشخاص الشهيرين. وبالإضافة لذلك كما هو معلوم، فقد حظي بعلاقة جيدة مع كافة النساء في حياته: أمه وبناته. واحترمه أطفاله أيضًا احترامًا كبيرًا، وخاصةً بناته، وحتىٰ لاحقًا عندما أصبحن أحرارًا لم يتكلموا بالسوء عن داروين، ولم تظهر أي فضائح حول سوء المعاملة أو الجهل كما هي حال بعض الآباء بعد أن يكبر أطفالهم ويتركوا بيوتهم.

فعندما ماتت آنا، ابنته البكر، في عام ١٨٥١ بعمر العاشرة، أصيب تشارلز بالإحباط، وهذا ما جعله يعادي الدين والله لفقده ابنته وموت أمه عندما كان صغيرًا. وبعد وفاة ابنته مكث متعذبًا في السرير لساعات، وأصيب بألم في معدته. توقف عن البكاء بعد فترة ليرىٰ الدكتور غوللي، ولكن عندما كتب إلىٰ إيما انهار مرة أخرىٰ. لقد

رحلت آني، «إلىٰ مرقدها الأخير...» وحوالي الساعة السادسة وجد داروين يبكي بمرارة... ولكن كان هناك شيء آخر يمزقه، كان يتوق للبقاء مع إيما، وكيف له أن يذهب ولم يدفن طفلته العزيزة؟»[1].

ورغم أن منتقديه حاولوا تمحيص كل ناحيةٍ من نواحي حياته بحثًا عن العيوب، إلا أنهم لم يجدوا دليلًا يكذب تكريس حياته لزوجته وأطفاله. إن التعاليم الدينية للمساواة بين الجنسين أمام الله وعدم دعم دونية الأنثىٰ بيولوجيًا عاكست الاستنتاجات المشتقة من البيولوجية التطورية في منتصف وأواخر القرن التاسع عشر. وبرأي المؤلف، فإن تاريخ هذه التعاليم مثال واضح لما يمكن أن تؤدي إليه تجاوزات تفكير المذهب الطبيعي. كما توجب علىٰ المجتمع الديني تقييم دور النساء في العبادة، وهو أمر ماض بنشاط الآن. عند التمحيص لم يلقن الدين الذي استخدم لتبرير الموقع الأدنىٰ للنساء هذا الأمر ولم يبرر بأي حال من الأحوال معظم الاستنتاجات المستخدمة لدعم مذهب دونية المرأة.

***

(1) Desmond and Moore, 384.

المقال الثاني[1]:
التحرش في المؤتمرات الإلحادية
من المنطقي أن يتحيز الشكاكين جنسيًا أيضًا...

لروبيكا واطسن Rebecca Watson

كتبت ناشطة نشر الإلحاد علىٰ الإنترنت روبيكا واطسن Rebecca Watson:

لقد تحدثت عن التحرش الجنسي بين الملحدين والعلماء، ثم جاءتني تهديدات الاغتصاب.

أنا شكوكية[2] ولكني لست من نوع الذين يعتقدون أن هجمات

---

(١) رابط المقال (وننبه علىٰ احتوائه علىٰ تجاوزات لا نرضاها كونه من شكوكية ملحدة سننبه عنها في حينها باسم المترجم):
http://www.slate.com/articles/double_x/doublex/2012/10/sexism_in_the_skeptic_community_i_spoke_out_then_came_the_rape_threats.html

(٢) الشكوكي Skeptic في الخارج يشير غالبًا إلىٰ شخص لا يؤمن بالأديان ويرىٰ أن كل شيء في الوجود يمكن أن يتم تفسيره ماديًا بعيدًا عما وراء المادة أو الطبيعة مثل غيبيات الدين أو الإله الخالق أو الروح والضمير إلخ. وبرغم الفوائد الحقيقية في التفكير الناقد للحماية من الدجل والغش والخداع باسم الدين أو غير الدين، إلا أن الشكوكي الملحد يحصر نفسه في المحسوس ويحاول إيجاد أي تفسير=

١١ سبتمبر كانت نتيجة لمؤامرة يهودية كبرىٰ – نكره هؤلاء. ونقول لهم «**توقفوا عن سرقة كلمة (شكوكي)**»، ولكنهم لا يستمعون لنا لأنهم يفترضون أننا مجرد جزء من المؤامرة اليهودية الكبرىٰ أيضًا.

لست كذلك، فأنا شكوكية من النوع الذي يستمتع بكشف مدعي القدرات الروحية والمعالجة المثلية وغيرهم من الدجالين الذي يخدعون الجمهور إما عبر الإيهام الذاتي أو للمتعة أو للربح. ولست وحدي فقط – فأنا جزء من تجمع يتعاظم (البعض قد يسميه حركة) ويتألف من مئات آلاف الأشخاص عبر العالم ممن يُقدِّرون كثيراً العلم والتفكير الناقد. وتمثلنا منظمات مثل لجنة البحث الشكوكي Committee for Skeptical Inquiry، والتي أسست في ١٩٧٦ وضمت أعضاء مثل إسحاق عاصموف Isaac Asimov وكارل ساغان Carl Sagan وستيفن جي غولد Stephen Jay Gould وبيل ني Bill Nye.

بدأت بتبني منهج الشكاك skeptic مذ كنت في الجامعة عندما عملت في متجر للسحر وأجريت بعض ألعاب الخفة علىٰ الهامش، وكنت معجبة جدًا بالساحر جيمس راندي الذي عُرف بجائزة المليون دولار لأي شخص يثبت أنه يملك قدرات خارقة. «**إن الشكاك والسحرة يتداخلان كثيرًا نتيجة اهتمام كلا الفريقين بالأساليب التي**

=لكل ما لا تفسير له في منهجه المادي بأية تفسيرات حتىٰ لو كانت غير منطقية أو هزيلة أو تتعارض مع البدهيات العقلية أو ترتكن إلىٰ غيب خاص به يخترعه ولا دليل عليه: في حين لا يقبل مثله إذا صدر من أصحاب الديانات (المترجم).

نخدع بها أنفسنا».

وعندما وجدت جمهورًا عريضًا من المتابعين لي على موقعي الشكوكي وتسجيلاتي الصوتية وكذلك موقع يوتيوب، لم أجد بأسًا في تلقي التهديدات بالاغتصاب من حين لآخر والإهانات المتحيزة جنسيًا أو التهكم على مظهري، بل قد يسليني أن أجد أحد المؤمنين بالخلق يصفني بالساقطة ثم يدعو لي أن أجد مَحبة المسيح في الوقت ذاته. وسبب عدم اكتراثي بهذه الإساءات أنها جاءت من مجتمع غريب ولم تصدر من مجتمعي «المجتمع الإلحادي الشكوكي» الذي اعتبرته واحة الأمان التي أنتمي إليها.

لكن عندما بدأت أُحدث مَن يتابعني من الشكاك عن القضايا النسوية، أدركت أني لا أملك واحة الأمان في هذا المجتمع، فعندما انضممت إلى الشكاك ظننت أنني قد وجدت عشيرتي؛ التجمع الذي يتميز بتثقيف عامة الناس بأمور العلم والتفكير الناقد، وكان شعوري بالانتماء إلى هذا المجتمع يشبه فيما أتصور شعور المسيحي بالانتماء إلى كنيسته تقريبًا، (رغم أني أجهل هذا الشعور الديني لأنني كمعظم الشكوكيين ملحدة) واعتقدت أننا نقوم بعمل مهم وجليل من السعي لعالم أفضل وأكثر عقلانية، ولحماية الناس من الاستغلال. وفي الاجتماعات كان أغلب المتحدثين والمستمعين الشكاكين رجالًا، لكنّي ظننت أنه أمر يمكن إصلاحه بقليل من العمل الجاد والعلاقات العامة الحسنة.

ثم بدأت بعض النساء يخبرنني بقصصهن عن حالات التمييز الجنسي في مناسبات الشكاك، وعن التجارب السيئة التي جعلتهن غير مرتاحات لدرجة دفعتهن للاستنكاف عن حضور هذه الاجتماعات مطلقًا، ولم أدرك شعورهن تمامًا لأني لم أعاني من قبل مشكلة في حضور اجتماعات يغلب فيها نسبة الرجال.

ولكن بعد سنوات من التدوين ونشر التسجيلات الصوتية وإلقاء الكلمات في المؤتمرات الإلحادية بدأت أتلقىٰ رسائل من غرباء يخبرونني بتفاصيل خيالاتهم الجنسية معي، وتعرضت من حين إلىٰ آخر في المناسبات الإلحادية إلىٰ مَن يمسني أو يمسك بي دون رضاي، ولكن القشة التي قصمت ظهر البعير كانت ردي بشكل طبيعي علىٰ ما ورد في فيديو لزميل شكاك بأن ختان الذكور مؤذٍ كختان الإناث تمامًا، وقلت: «رغم معارضتي أي ختان لسبب غير طبي، ولكن ختان الإناث غالبًا أكثر إيذاء من ختان الذكور بكثير»[1].

---

(١) في سعي الشكاكين للطعن في كل ما أتت به الأديان باعتبار أغلبها مؤذي وغير مفيد، فلم يسلم منهم حتىٰ ختان الذكور!! ذلك الختان الذي فعله ويفعله مليارات البشر منذ آلاف السنين ولم يتسبب في ضررهم (بعد استبعاد بعض الأخطاء مثله مثل أي عملية طبية أو جراحية أخرىٰ)، بل وأعلنت منظمة الصحة العالمية أهمية ختان الذكور في الوقاية من الكثير من الأمراض منها الإيدز:

http://www.who.int/mediacentre/news/statements/2006/s18/ar/

وكذلك مركز السيطرة علىٰ الأمراض:

http://www.cdc.gov/nchhstp/newsroom/docs/factsheets/mc-factsheet-508.pdf

وبالمثل يتم الخلط بين ختان الإناث الفرعوني أو الأفريقي الضار وبين أي ختان=

وكانت الاستجابة من الملحدين الذكور هائلة وهذا أحدها:

«بصراحة وأقول بصراحة.. تستحقين أن تغتصبي وتعذبي وتقتلي.

وأقسم إني سأستمتع إن استطعت فعل ذلك»!

قمت بعد هذا بتتبع الصفحات الشخصية لهؤلاء الذين يرسلون الرسائل على مواقع التواصل فاكتشفت أنهم أشخاص بالغون نشطون في التجمعات الإلحادية والشكوكية، يقرؤون المدونات نفسها التي أقرأها، ويحضرون المناسبات نفسها التي أحضرها، لقد كانوا عشيرتي الخاصة التي ظننت أني وجدت الانتماء والأمان ضمنها، ولكن اتضح لي أنهم أسوأ الجميع.

وظننت أن الحل يكمن في تثقيف مجتمعي الخاص، وبدأت بإلقاء كلمات عن مجالات تتداخل فيها القضايا النسوية والأمور الشكوكية، فشجعت مَن يستمع إلي على المشاركة في أمور من قبيل مناهضة ختان الإناث، والاعتراض على العلوم المزورة الموجهة ضد النساء والتي يروجها اليمين المتدين، ومناصرة النساء اللواتي يوصمن بالسحر في قرى الريف الإفريقي.

=آخر مفيد للأسف حتى ولو كان الجزء المزال أقل بكثير مما يزال في الذكر، وهو ما نطالعه في الدراسة الحديثة التالية من مجلة هي السادسة عالميا في مجالها:

https://www.genitalautonomy.org/2016/03/02/female-genital-alteration-a-compromise-solution-arora-and-jacobs-journal-of-medical-ethics/

وفي تموز من عام ٢٠١١ حضرت مؤتمرًا إلحاديًا في دبلن بعنوان «**نشر الإلحاد**» وسرتني المشاركة في ذلك المؤتمر مع أشهر ملحدي العالم ريتشارد دوكنز المعروف بأفلامه وكتبه المتصدرة للكتب الأكثر مبيعًا، واستهلك دوكنز وقته في انتقاد الفلكي فيل بلي Phil Plait لأن الأخير جادل في كلمة له السنة الماضية مطالبًا أن يكون الشكاكون أكثر لطفًا. أما أنا فقد استهلكت وقتي لشرح تجربتي الشخصية في نشر الإلحاد على شبكة الانترنت وكيف **أثر كوني امرأة على طبيعة الردود التي قد أتلقاها كالتهديد بالاغتصاب والتعليقات الجنسية الأخرى**.

وتلقى الجمهور في المؤتمر طرحي بشكل جيد، وأمضيت بعد ذلك عدة ساعات في استراحة الفندق أتحدث مع ملحدين متنورين آخرين عن قضايا الجندر وتجسيد المرأة جنسيًا، واحتقار النساء. وعند الساعة الرابعة صباحًا تعبت جدًا فاعتذرت لهم بسبب الإرهاق وأني سأذهب لأنام في غرفتي واستعد للقاءات اليوم التالي، وبينما أنا أدخل إلى المصعد ترك أحد الرجال المجموعة فجأة وهو من الذين لم أتحدث معهم بعد، ودخل معي في المصعد. وبينما كان الباب يغلق خاطبني بقوله: لا تفهميني خطأ، أنت تروقين لي، فهل ترغبين أن تأتي لغرفتي في الفندق لشرب فنجان من القهوة؟ اعتذرت منه بلباقة وتركت المصعد لما وصل للطابق الخاص بغرفتي.

وبعد أيام من انقضاء المؤتمر أعددت فيديو أسجل فيه ما مر

معي في هذه الرحلة، وقررت استغلال حادثة المصعد مثالًا للأمور التي يجب تجنبها في المؤتمرات إن أردنا أن تشعر النساء بالراحة والأمان. ففي نهاية المطاف بدا لي واضحًا أنه إن كان هدفك الحصول علىٰ متعة الجنس أو حتىٰ مجرد رفقة النساء ألا تذهب إلىٰ مؤتمر! ثم تستمع لامرأة تتحدث لمدة ١٢ ساعة عن انزعاجها من اعتبارها مادة لمتعة الجنس في المؤتمرات، ثم تنتظرها لتبدي رغبتها بالذهاب لتنام وتتبعها إلىٰ مكان منعزل وتعرض عليها الذهاب إلىٰ غرفتك لشرب فنجان «قهوة» والتي توجد بالمناسبة في منهل الفندق الذي تركته للتو، وما قلته في الفيديو بالضبط مع ضحكة ودودة «**يا ناس! رجاء لا تفعلوا مثل هذا**» ولكن يبدو أن ما سمعه حشود الملحدين «**يا ناس، لن أتوقف عن كره الرجال حتىٰ أحصل علىٰ مليوني تعليق علىٰ يوتيوب يصفني بالساقطة**» ولقد ارتفع الشكاكون بقوة إلىٰ مستوىٰ هذا التحدي المتخيل.

وحتىٰ دوكنز نفسه انضم بثقله إلىٰ المستهزئين بي (رغم أنه قد جلس بجانبي صامتًا خلال مؤتمر دبلن) بعدما ذكرت طريقة تعامل الناس معي، فبعد شهر كتب التعليق التالي علىٰ مدونة أحد زملائي:

«**عزيزتي المسلمة...**

توقفي عن الشكوىٰ بعد إذنك، نعم، نعم، أعلم أنك تعرضت للختان بحد شفرة و... تثاؤب... ولا تخبريني مرة أخرىٰ، أعلم أنه لا يسمح لك بقيادة سيارة أو أن تتركي البيت دون مرافقة أحد أقاربك

الذكور، وأن زوجك يُسمح له بضربك، وأنك سترجمين بالحجارة حتىٰ الموت إن زنيت، ولكن توقفي عن الشكوىٰ بعد إذنك، فكري بالمعاناة التي يجب علىٰ أخواتك الأمريكيات تحملها.

في هذا الأسبوع بالذات سمعت عن معاناة إحداهن، وتسمي نفسها الصغيرة الشكاكة "Skep"chick وهل تعلمين ما حدث لها؟ لقد دعاها أحد الرجال في مصعد إلىٰ غرفته لتشرب معه فنجان قهوة، أنا لا أبالغ، لقد دعاها بالفعل، دعاها لتشرب معه فنجان قهوة في غرفته. بالطبع أجابته بالرفض، وبالطبع لم يلمسها بتاتًا ولا بأصبع واحد، ولكن مع هذا..

فأنت أيتها المسلمة تظنين أن لديك حالة احتقار للمرأة تشتكين منها، بالله عليك انضجي أو تحملي قليلاً.

ريتشارد».

لقد كان تعليق دوكنز الساخر يمثل ختم الموافقة الذي شجع الكارهين، فامتلأت قناتي علىٰ اليوتيوب وكثير من فيديوهاتي بالتهديدات «الساخرة» بالاغتصاب، وبإهانات تتعلق بجسد المرأة وكلام ساقط آخر، وأرسل لي عدد من الأفراد مئات الرسائل يعدونني فيها بأنهم لن يتركوني في حالي، وتم تخريب صفحتي علىٰ ويكيبيديا، كما امتلأت صفحتي علىٰ الفيسبوك بصور مرعبة للجثث الميتة.

وأنشأت عدة حسابات باسمي علىٰ تويتر، واستخدمت لنشر أموراً مسيئة جدًا لأصدقائي ولمشاهير الناس، (وقد أغلق تويتر أسوأ

هذه الحسابات، وبقي بعضها الآخر الذي سمح له بالاستمرار طالما أزالوا اسمي). كما أنشأت مدونات كاملة عني متفرغة لتوثيق كل كلمة قد قلتها سابقًا، وللأسف كذلك التنقيب في سجلي السابق عن كل سقطة وقعت فيها، ويبدو أن أفضل ما وصلوا إليه أنني أحمل بكالوريوس في الاتصالات من جامعة بوسطن فقط، ولكن المرعب! أنني قد سخرت من هذا الأمر في أحد أحاديثي الأولىٰ قبل سنوات طويلة: «**لا تأخذونني علىٰ محمل الجد فأنا لست عالمة، وما أحمله مجرد بكالوريوس في الاتصالات، واختصاصي الرئيسي التحدث بالهراء**».

ومع ذلك تم فضح زلاتي أيام دراسة الجامعة ونشرت علىٰ المواقع الاجتماعية والمنتديات والمدونات، وطالب الشكاكون المنتصرون أن أتوقف عن الكتابة والحديث عن العلم لأني أفتقد المؤهلات المناسبة. (واللافت للنظر أنه لم يطالبني أحد بإزالة ثلاثة من تسجيلاتي الصوتية من العرض والتي شاركني فيها من ليس من العلماء، ربما هذه مصادفة).

ثم دعيت بعد أسبوع من تعليق دوكنز «**عزيزتي المسلمة**» للحديث في مؤتمر TAM الشكوكي في لاس فيغاس، وهو المؤتمر الذي جمعت له في سنواتٍ سابقةٍ تبرعات بآلاف الدولارات لإرسال عشرات النساء لحضوره، وقبل موعد المؤتمر بأسابيع كتب أحد الملحدين علىٰ تويتر أنه سيحضر المؤتمر ولو اجتمع معي في مصعد

فسيعتدي علي:



Follow

If I run into Rebecca Watson in an elevator at #TAM9 next week I'm totally copping a feel.

Reply Retweet Favorite

وقد سمحت الجهة المنظمة لهذا الرجل بحضور المؤتمر، وهي مؤسسة جيمس راندي التعليمية، أي المنظمة التي بدأها الشخص الذي أطلعني على الشكوكية بداية، ولم تقدم المؤسسة أي إجراءات لطمأنتي. ومع كل ذلك حضرت المؤتمر ولكن لم أبق بمفردي مطلقًا خلال فترته، وأخيرًا توقفت من السنة الماضية عن حضور مؤتمر TAM الإلحادي لأن المؤسسة الراعية اتهموني مع النساء الأخريات اللواتي تعرضن للتحرش في تجمع الشكوكيين بأننا ننفر النساء من حضور المؤتمر بسبب حديثهن العلني عن التحرش!

أما المنظمات الشكوكية الأخرى فقد فكانت أكثر تعاطفًا، فقام كل من «مركز البحث» (المنظمة العامة للجنة البحث الشكوكي) ومنظمة الملحدون الأمريكيون، وعدة منظمات إنسانية باعتماد سياسات منع التحرش في مؤتمراتهم، ولكن مع هذا فلا يزال كثير من قيادات التجمع الإلحادي يرفضون الاعتراف بوجود مشكلة، فأولئك يمارسون لعبة «كلا الطرفين مخطئ» ويتملقون بقولهم إن كلمة

«محتقر للمرأة» تساوي بالإهانة كلمة **«ساقطة»**.

وفي هذه الأثناء تعرضت نساء شكوكيات أخريات للمضايقة حتىٰ تركن الظهور العلني بل تركن بيوتهن، فزميلتي في الكتابة علىٰ موقع Skepchick آمي دافيس روث غيرت منزلها بعد أن تم نشر عنوان بيتها في منتدىٰ مخصص لنشر الكراهية ضد النسويات الشكاكات، وفي سبتمبر كتبت المدونة غريتا كريستينا أنه بمجرد أن أتحدث عن أي شيء يثير الجدل أكثر من وصفات الشراب الأسطوري Pan Galactic Gargle Blaster وأشباه هذه الأمور يمكنني توقع كمية هائلة من الإساءات والإهانة والتهديد بالقتل والاغتصاب وغيرها.

كما توقفت جين ماغرايت عن التدوين وقبول إلقاء الكلمات تمامًا، وقالت: **«أستيقظ كل صباح لأرىٰ تعليقات وتغريدات ورسائل بريد تهاجمني بأني مومس، مدعية للطهارة، بشعة، سمينة، نسوية متطرفة، متخلفة، ساقطة، فرج، وهذا غيض من فيض»** وكتبت: **«لم يعد بإمكاني تحمل هذا»**.

أعلم أن هذا المقال سيزيد من غضب الشكاكين المتحيزين جنسيًا، وسأسمع كيف أنني مومس استحق كل ما يحدث لي، وكيف أني كاذبة أختلق كل شيء، وكيف أني أبالغ في ردات فعلي، وكيف يجب أن أتجاهل المتنمرين وسيختفون بعيدًا، لكني كتبت هذا المقال علىٰ كل حال، لأني أعتقد بأن أهداف الشكاكين أهداف خيرة مثل

تعليم العلم وحماية المستهلكين وتعميق معرفتنا بعلم النفس البشري، لكن هذه الأهداف لـن تتحقـق إن استمر وجـود الجـرح الملـوث بيننـا كثقافـة باطنـة لا تتجاهـل القـضايا الاجتماعيـة فقـط بـل تعـادي الفكـر التقدمي بقوة.

وأؤمـن أيـضًا بـأن ضـوء الـشمس أفـضل مظهـر، وأن تجاهـل المتحرشين لن يجعلهم يختفون بعيدًا، ففـي معظـم الحـالات لا يريـد الناس المتحرشين بنا حصول ردة فعل منا...

بل يريدوننا أن نصمت!

ويغضبهم أن الفكر النسوي له أرضية في «**مجتمعهم**».

وما لا يفهمونه أن هذا مجتمعي أيضًا.

* * *

المقال الثالث[1]:

من هيتشنز إلى دوكينز: أين النساء في الإلحاد الجديد؟ أبرز الملحدين هم من الرجال البيض. لا بد أن تراجع حركة الإلحاد نفسها، وتاريخ الكنيسة أيضاً.

لكاتي آنجل هارت Katie Engelhart

كتبت كاتي آنجل هارت Katie Engelhart:

«لتصمت نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مأذوناً لهن أن يتكلمن بل يخضعن كما يقول الناموس أيضاً. وإن كن يردن أن يتعلمن شيئاً فليسألن رجالهن في البيت لأنه قبيح بالنساء أن يتكلمن في كنيسة»

رسالة كورنثوس الأولى[2].

---

(١) رابط المقال:

http://www.salon.com/2013/07/21/from_hitchens_to_dawkins_where_are_the_women_of_new_atheism/

(٢) تنقسم كتب النصارى في العموم إلى ٣ أقسام، العهد القديم (الأخبار منذ آدم وإلى ما قبل عيسى عليه السلام)، والعهد الجديد (أخبار عيسى عليه السلام كما وردت في ٤ أناجيل اختارها مجمع نيقية في القرن الرابع الميلادي وتم استبعاد أناجيل كثيرة أخرى)، ورسائل وأعمال الرسل (أخبار الحواريين ورسل عيسى الذين دعوا=

الإلحاد الجديد أصبح أخباراً قديمة. فقد أتى «**الإلحاد الجديد الأجدد**»: وهو الجيل القادم مع شعارات إلحادية أكثر روحانية، وطموح لبناء كنيسة إلحادية في لحظة تاريخية للملحدين. ولكن هل سيشمل ذلك التجديد النساء؟

هناك نقاشٌ عن «**مشكلة المرأة**» ضمن الحركة الإلحادية منذ عدة سنوات. حيث أعلن البعض نفسه من كبار الكهنة الجدد لكنيسة اللادين أمثال ريتشارد دوكينز، كريستفور هيتشنز، سام هاريس، بيتر سينجر، أ.س. جراينلج، دانيل دينيت..إلخ. جميعهم رجال وغاضبين، وكتبهم مهمة وأساسية للإلحاد وهي الأعلىٰ مبيعًا. فقد ساهم هؤلاء الكتاب في إحياء القضية العلمانية، ويددوا ضباب الصواب السياسي ليحكموا الحصار حول التدين. لكن سرعان ما اعتبر هؤلاء الملحدون الجدد ناديًا من الصبية – عُصبة من الرجال (البيض)، الملتزمين بشعارات إلحادية عنيدة.

أين النساء في نادي الإلحاد؟

لقد كن هناك: يمارسن إضلال الناس بقوة ليخرجوهم من حظيرة الإيمان. كن مدونات وقحات وساهموا في تأسيس

=الناس إلىٰ دينه ورسالاتهم إلىٰ بعضهم البعض وإلىٰ بعض المدن بما فيهم بولس اليهودي الذي لم يكن من الحواريين وحرف الدين)، والنص المذكور هنا هو من إحدىٰ تلك الرسائل لبولس (المترجم).

المؤسسات. وكن عالمات. وبنفس الوقت الذي كان فيه دوكينز - هيتشنز - هاريس ينشرون موجتهم الكبيرة الثلاثية من النقد الإلحادي، نشرت المؤرخة جينفر مايكل هيشت كتابها «**الشك**» ونشرت الصحفية سوزان جاكوبي كتاب «**المفكرون الأحرار**»- وكلا الكتابين مشهورٌ جداً. رغم ذلك فشلت هؤلاء النسوة وكثيرات غيرهن في البروز كشخصيات عامة ذات أسماء مشهورة. وتقول هيشت «**لم يتكلم أحد عن كتاب [الشك] كظاهرة**» ولكنهم «**فقط تكلموا عن الكتاب**».

فما الذي يعنيه هذا؟

تاريخ النساء الملحدات كئيب – يتجذر جانبه الأوربي منذ الثورة الفرنسية التي أسست الأرضية لتوجه لا ديني أكثر جرأة.

لاحظ الفيلسوف الفرنسي بارون دي هولباخ في سبعينيات القرن السادس عشر ندرة «**النساء المرتابات أو الملحدات**» وبرر ذلك منطقيًا بأن النساء ميالات بيولوجياً إلىٰ «**السذاجة وسرعة التصديق**».

واعتُبرت الملحدات بشكل خاص بغيضات أينما وجدن. وقد صور الكاتب البريطاني الشهير صمويل جونسون النساء في قصيدته «**لندن**» عام ١٧٣٨ كعلقات مدنية:

منازلها المنهارة تدوي في رأسك *

وهنا ملحدة تحدثك حتىٰ تموت

يستعمل الشاعر الإنجليزي إدوارد يونج تعبير «**هي ملحدة**» مستنكراً ليبشر بنهاية الحياة علىٰ الأرض:

كان الملحدون نادرين منذ ولادة الطبيعة *

حتىٰ ظهرت «هي ملحدة» علىٰ وجه الأرض

وفي بعض الحالات لم يقتنع الرجال بوجود امرأة ملحدة (كما **أنكروا لعدة قرون إمكانية وجود نساء شاذات جنسيًا**). في عام ١٨٠٦، أظهرت مجلة La Belle Assemblée هذا الشك، وذلك في مقالة بعنوان «**صفة المرأة الملحدة**»:

«**كيف من الممكن مثلاً تصور امرأة ملحدة؟... ما الذي سيدعم هذه القصبة إن لم يجبر الدين ضعفها، لأجل جمالهن فقط يجب أن تكون النساء تقيات**». (ويمضي الكاتب ليتخيل، بتفصيل أكثر، موت صعلوكة ملحدة لا يحزن لموتها أحد).

وفي رسالة خاصة كتبت في ستينيات القرن السابع عشر، نقل الكاتب الإنجليزي بونيل ثورنتون Bonnell Thornton صدمته للقرف الشديد الذي يولده فكرة «**المرأة الملحدة**»:

«**يا إلهي! امرأة ملحدة!... صدمة المرء هنا أكبر من صدمته بفكرة امرأة قاتلة بأسوأ حالة تكون عليها، امرأة تقتل أولادها وتقتل نفسها**».

كما لاحظ الطبيب الشهير توماس كوغان Thomas Cogan في عام ١٨١٣ (مؤسس الجمعية الملكية الإنسانية) تلك الملاحظة:

«**يرىٰ الرجال المرأة الملحدة مثيرة للاشمئزاز والقرف أكثر مما**

لو أنها كانت مغطاة بالدمامل».

يرىٰ الأستاذ في جامعة نورث ويسترن لورنس ليبكينج في كتابه الشهير عن صمويل جونسون Samuel Johnson أن قصيدة جونسون كانت ردة فعل علىٰ ظهور امرأة داعية مثيرة للجدل في ثلاثينيات القرن الثامن عشر. حيث اعتبرت أداة لانحطاط الحداثة.

والخلاصة: كانت المرأة الملحدة أكثر من كافرة بالله، بل كانت شقاً في النسيج الاجتماعي – وخطراً علىٰ الجميع.

النساء أكثر إيماناً في معظم الإحصائيات. إذ ينتشر الكفر في بلاد مثل بريطانيا والولايات المتحدة، لكن النساء أقل احتمالاً أن يكن كافرات. وفق بيانات المسح العالمي للقيم World Values Survey، نجد في حين أن ٣.٦ بالمائة من الرجال الأمريكيين يعرفون أنفسهم ككافرين، فإن ١.٢ بالمائة من النساء فقط يقمن بذلك. ترتفع هذه الأرقام في بريطانيا إلىٰ ١١.٦ للرجال و٩.٣ للنساء.

لكن هذه الإحصائيات غير كافية لتفسير الندرة النسبية للملحدات البارزات. نوقش هذا الموضوع مطولاً: في منشورات مثل المفكر الحر والآنسة وفي مؤتمرات «النساء في العلمانية» لجمعية مركز الاستعلام عام ٢٠١٢ و٢٠١٣ ومن قبل عددٍ لا يحصىٰ من المنظمات المحلية.

اقترح كتابٌ أن تعنت الإلحاد الجديد يميل إلىٰ إبعاد النساء – وذلك لأسباب اجتماعية فالنساء لا يستحضرن نفس التطرف العنيف في الدفاع عن كفرهن. في حين بحث البعض في الانحياز الجنسي

ضمن المجتمع الإلحادي (انظر: قصة ريبيكا واطسون وشكواها من تعرض الناس للتحرش في المؤتمرات الإلحادية). وفسر البعض ذلك بأدلة غير مقنعة من البيولوجيا. ولام بعض الأكاديميين حقيقة أن الكنائس خدعتنا بالعودة السريعة للتاريخ: وادعت زورًا بأن الفضل في التقدم كان من جهة النساء.

أو ربما أن كل ذلك مجرد وهم؟ ادعت الصحفية فيكتوريا بيكيمبيس Victoria Bekiempis في مقالة عام ٢٠١١ ادعاءً مستفزاً بأن «خدعة نادي الصبيان[الملحدين]» هي من صنيعة أجهزة الإعلام. حيث لاحظت أنه في سنة ٢٠٠٦، نشرت عدة مقالات إخبارية تصف داوكينز وزملاؤه بأنهم «رابطة إخوة فكرية»: نخبة الإلحاد العنيدة. فعلقت تلك الصورة في الأذهان. فنصحت بيكيمبيس: «لنصلح ذلك، في كل إشارة لهيتشنز، نقابلها بإشارة لجنيفر هيشت».

أشارت سوزان جاكوبي مؤلفة «المفكرين الأحرار» إلىٰ نوع من المعارضة الداخلية ضمن حركة الإلحاد. ففي محاولة للانتصار علىٰ الجناح اليميني، تجادل سوزان بأن الملحدين مترددين جداً في تأييد حقوق النساء. ومن دروس التاريخ أن الحركات وإن تقاطعت مصالحها فإن هذا لا يعني أنهم يد واحدة، فهناك مخاوف جدية من نفور الأنصار وضياع القضية المعلنة.

هل الأمور ستكون مختلفة في كنيسة فعلية «التيار الإلحاد الجديد الأجدد»؟ لقد أسست عدة كنائس علمانية علىٰ مدىٰ الشهور الأخيرة

في بريطانيا وأمريكا الشمالية وأماكن أخرى[1]. وأطلق كوميديان جمعية الصاندي في لندن - من أجل الحصول على ضجة إعلامية. ومع الفروع الجديدة في ميلبورن ونيويورك، تخطط الجمعية لفتح ٤٠ موقعاً أمريكياً هذا الخريف. العقيدة الملهمة لهذه الجمعية هي أن الملحدين يمكن أن يستفيدوا من بنية الكنيسة التقليدية (أو المسجد أو الكنيس): الإحساس بالانتماء للمجتمع، محاضرات، فترات من الراحة ومناسبات للتأمل الأخلاقي.

فتحت الكنائس العلمانية الأخرى من قبل فلاسفة، وقسيسين سابقين، ومسيحيين إصلاحيين. حيث جذبت المراكز الأخرى مثل مجتمع الإنسانيين في جامعة هارفرد الانتباه العالمي أيضاً.

وبرغم أن المؤسس لجمعية الصانداي ثنائي كوميدي رجل وامرأة. لكن المؤسسين العلمانيين الآخرين رجال، مثل الكاهنين الإنسانيين في هارفارد. العينة صغيرة جداً لتقدم استنتاجاً قاطعاً، لكن ندرة النساء في هذا المجال أمرٌ لا بد من مراقبته.

---

(١) يرى الكثير من المحققين أنه في إنشاء العلمانيين والملحدين أمثال تلك الكنائس قلت أم كثرت: اعترافاً منهم بالخواء الروحي والنفسي الذي تركه الكفر في أنفسهم وابتعادهم عن الدين، فالدين هو روح الإنسان وفطرته، وهو الضابط الرابط لأخلاقه ومجتمعه، وبدون الدين فلا يوجد أي دافع أو مغزى للحياة أو الالتزامات الأخلاقية أو المجتمعية التي في نظر المنهج المادي لا قيمة لها على الإطلاق بل مكلفة للفرد وراحته ولا تستحق عناء الجهد في حياته الواحدة التي ينهيها الموت بلا أمل ولا حساب ولا جزاء ولا حياة أخروية (المترجم).

فليأخذ الإلحاد موجته، ولتتخذ العلمانية كنائس لها. لكن إن استعمل الملحدون لفظ «كنيسة»، كاسم ونموذج تنظيمي، فيجب أن يحذروا ما يمثله التاريخ الطويل لقمع المرأة واضطهادها في الكنيسة. فعليهم تنشيط كنائس الإلحاد الجديد في شموليتها لكلا الجنسين، وأن تسعىٰ بقوة للتنوع في قياداتها والوقوف مع حقوق المرأة. والمرأة أو الملحد الذي يعجبه الكنيسة الإلحادية يلزمه أن يتخذ موقفًا من هذه القضية[1].

منذ قديم الزمان والرجال يعظون النساء. فلنحترس ألا نستسلم ونسلم الوعظ الإلحادي أيضًا.



(١) كل هذه العبارات والكلمات إذا استبعدنا الإلحاد منها ووضعنا الدين: لوجدنا أنها لم تختلف عن عموم شكاوىٰ النساء ومنها هذه المقالة، وهو ما يعطينا ملمحين هامين، أولهما: أن الإلحاد في الغرب لم يأت بحل ناجح للنساء المضطهدات بل علىٰ العكس: هو غارق في النظرة الجنسية النفعية لهن كما رأينا في المقال السابق والذي أشارت إليه الكاتبة هنا أيضًا، وذلك بعكس الدين الذي علىٰ الأقل يحمل لها احترامًا وتقديراً ومكانة كأم وزوجة وابنة ولها عفة مصونة الجانب من الابتذال في تعاليمه، وأما الملمح الثاني: فهو يفسر لنا لماذا لا تقبل النساء علىٰ الإلحاد بالفعل، ولعل ذلك يظهر جليًا في كثرة الداخلات من النساء إلىٰ الإسلام مثلاً. وذلك باعتراف واحدة من أكبر الصحف النصرانية في العالم (The Christian Science Monitor) في مقالها في ٢٠٠٥:

Why European women are turning to Islam
http://www.csmonitor.com/2005/1227/p01s04-woeu.html

المقال الرابع[1]:
لماذا لم تزد مكاسب حقوق المرأة سعادة النساء؟

لآنا بيثريك Anna Petherick

كتبت آنا بيثريك Anna Petherick:

تشير التقارير إلىٰ انخفاض شعور النساء بالرضا عن حياتهنّ في الولايات المتحدة وأوروبا منذ السبعينيّات.

النساء أطول عمراً من الرجال في كل دول العالم، علىٰ الرغم من أنهنّ يواجهن مستويات فقرٍ أكثر من الرجال، واحتمالات أكبر من التعرض للعنف الجنسي، وغيرها من الصور المختلفة من التمييز.

وفي حين أن النساء يعشن أطول من الرجال، فمن غير الواضح ما إذا كانت سعادتهنّ تسير بخطوات مماثلة. إذ يتوقع المرء أن النساء سيشعرن برضًا أكبر مقارنةً بالرجال بما أنهنّ قد حققن حريات سياسية واقتصادية واجتماعية؛ ولكن الأمر ليس كذلك.

---

(١) رابط المقال:

https://www.theguardian.com/lifeandstyle/2016/may/18/womens-rights-happiness-wellbeing-gender-gap

أشار الاقتصاديان بيتسي ستيفينسون وجاستن ولفرز -اللذان يتصادف أنهما يسكنان معاً مع أطفالهما- إلىٰ «**مفارقة تناقص سعادة المرأة**». حيث قاما بتحليل ميول السعادة لمواطني الولايات المتحدة بين عامي ١٩٧٠ و٢٠٠٥ فوجدا نتيجة مفاجئة.

اكتشفا أن **النساء الأمريكيات في السبعينيّات قدّرن رضاهن عن حياتهنّ أكثر من الرجال عموماً**. ومن ذلك الوقت شهدت سعادة النساء **انخفاضاً**، بينما ظلّت سعادة الرجال مستقرة تقريباً. وبحلول التسعينيّات، كانت النساء أقل سعادة من الرجال. هذه التعاسة النسبية قلّت بعد مطلع القرن، ولكن مازال الرجال يتمتعون بشعور أعلىٰ بالسعادة يساوي علىٰ الأقل -إن لم يكن يفوق- ما تشعر به النساء.

شهدت الخمس وثلاثون سنة تلك تقدماً في مجال حقوق المرأة الأمريكية وقوتها المالية. فمثلاً حظر الكونجرس في عام ١٩٧٤ التمييز القائم علىٰ أساس الجنس في مجال الائتمان البنكي، وفي عام ١٩٧٥ مُنعت الولايات من استبعاد النساء من هيئات المحلفين. وحتىٰ عام ١٩٧٦، كان الاغتصاب الزوجي شرعياً في كل الولايات المتحدة[1].

---

(١) لا يوجد في الإسلام ما يمكن وصفه بالاغتصاب الزوجي Marital rape، وذلك لأن جماع الزوج لزوجته هو حق له بموجب عقد الزواج المتفق عليه بينهما، ولكن يوجد حفظ حقوق وطلاق إذا أخل أحد الطرفين بالمعروف والمعاشرة بالحسنىٰ أو أضر بالآخر، وذلك مثل امتناع الزوجة عن فراش زوجها بغير سبب مقبول إلا التكبر أو النشوز والعناد، فهذه يحق لزوجها تطليقها إذا لم تستجب=

وخلال فترة الخمس وثلاثين سنة، انتقلت مرتبات النساء العاملات في الوظائف ذات الدوام الكامل من كسب أقل من ٦٠٪ من متوسط مرتبات الرجال إلىٰ كسب حوالي ٧٦٪ منه، صحيح أن هذا الفرق ما زال مصدر إحراج لدولة تطمح أن تكون قائمة علىٰ التفضيل علىٰ أساس العمل والاجتهاد، ولكنه مع ذلك يُعتبر تحسّناً.

لقد حدثت بالتأكيد في هذه الفترة المدروسة أمور ربما جعلت النساء الأمريكيات أقل سعادة. مثلاً الارتفاع الهائل في معدلات سَجن شركائهم الفعليين والمحتملين (لم يترك هذا الارتفاع آثاراً في بيانات سعادة الرجل؛ حيث لم تشمل الدراسات المتعلقة بالرضا عن الحياة السجناء).

حيث شهدت العشرون عاماً ما بين ١٩٨٠ و٢٠٠٠ زيادة قدرها خمسة أضعاف في أعداد السجناء الأمريكين من السود ذوي الأصول الأفريقية، فأصبح الرجال السود خلف القضبان في الولايات المتحدة

=إلىٰ النصح، وكذلك إذا كان الزوج غير سوي الأخلاق (مصاب بالسادية مثلاً أو بإدمان الخمر المحرم أو لديه عقد نفسية يخرجها في المعاشرة) أو شاذ في جماعه لزوجته كأن يأمرها بما نهىٰ الله عنه مثل الإتيان من الدبر أو في الحيض ونحوه أو يجبرها علىٰ ما يشق عليها مما هو معلوم لكل ذي حس، فمثل هذه الزوجة لها أن تطلب الطلاق منه إذا لم يستجب إلىٰ النصح، ولكن لا يوجد في الإسلام لفظ ولا مصطلح ولا حكم (الاغتصاب الزوجي) الذي اخترعوه لعدم وجود ما يصون تلكم الحقوق في شرعهم وقوانينهم في الخارج إلا بهذه الصورة. وأما في الإسلام: فإما نصح وصبر واستجابة وانصلاح، وإما تفريق وطلاق (المترجم).

أكثـر مـن الـسود الملتحقـين بالكليـات والجامعـات. ومثـل هـذه الإحصائيات توحي بحدوث تغيرات كبيرة في سوق الزواج.

وعلىٰ الـرغم مـن أن الزيـادة في معـدلات الـسَّجن أثـرت علـىٰ الأمـريكيين الـسود بـشكل أكـبر مـن غيـرهم، إلا أنـه عنـد أخـذ جميـع الأمريكيين في الحسبان، تجـد أن الارتفـاع في معـدلات سَـجن الـذكور بين عامي ١٩٧٠ و٢٠٠٠ مسؤولٌ عـن انخفـاض معـدلات الـزواج في الولايات المتحدة بنسبة ١٣٪. حيـث دفعـت الأعـداد المتناقـصة مـن الرجال المتاحين غير المسجونين كثيراً مـن النـساء إلـىٰ قبـول طلبـات زواج مـن رجـال مـا كـنّ ليقبلـنهم، ويبـدو واضـحـًا أن هـذا التبـاين في العـرض والطلـب سـبب كـافٍ في جعـل الميـزة الاقتـصادية للـزواج في صف الرجال دون النساء.

ولكن سجن المزيد مـن الرجـال لا يفسر كليـًا انخفـاض سـعادة المـرأة الأمريكيـة؛ فالنـساء في الـدول الـصناعية الأخـرىٰ - وهـي دول لا تـسجن كثيـراً مـن رجالهـا مثـل أمريكـا - أصـبحن أقـل سـعادة أيضـًا في العقود الأخيرة. حيث وجدت ستيفينسون وولفرز أن الفجوة بـين سـعادتي الـذكر والأنثـىٰ في أوروبـا أخـذت منحـىً مـشابهـًا لفجوة السعادة بين الجنسين في الولايات المتحدة خـلال نفـس الفـترة تقريبـًا.

لماذا إذاً؟... تشير الأدلة إلىٰ الفكـرة القائلـة بـأن حقـوق المـرأة وأدوارها في المنزل في الولايات المتحدة وأوروبا لـم تـواكـب التغيـرات

في مكان العمل. ولذلك؛ فإن النساء اللاتي يعملن في وظائف ويقُمن غالبـًا بأعمال المنزل ورعاية الأطفال **يحملن علىٰ عاتقهن عبئـًا مزدوجـًا يقتطع من النوم ووقت الترفيه**. ويُعتقد أن الذهاب يوميـًا إلىٰ العمل في رحلات طويلة جعل النساء البريطانيات أكثر تعاسةً من الرجال البريطانيين؛ **بسبب الضغط الأكبر علىٰ النساء للقيام بمسؤولياتهنّ في المنزل بالإضافة إلىٰ العمل**.

عندما يقاس العبء المزدوج بدقة - كما في الدول الأوربية - توضح النتائج تأثير التوقعات علىٰ شعورنا بالسعادة. **فالعبء المزدوج الذي واجهته النساء في السويد دفعهنّ إلىٰ الشعور بتعاسة أكبر من نظيراتهنّ في اليونان**؛ وذلك في الغالب لأن توقعات النساء السويديات بخصوص المساواة بين الجنسين أكثر طموحـًا. **(أقل من ٣٥٪ من النساء السويديات يقمن بثلاثة أرباع أعمال المنزل، مقارنة بـ٨١٪ من النساء اليونانيات)**.

وتوقعات النساء أيضـًا سبب النتيجة الغريبة التي وجدت أن أداء الأعمال المنزلية يجعل الرجال إحصائيـًا أقل عرضة للإصابة بالاكتئاب ولكنه يساهم في إصابة النساء بالاكتئاب. يبدو أن القيام بالأعمال المنزلية يشجع الرجال علىٰ أن يروا أنفسهم محبوبين عمومـًا ومنصفين، وأنهم يخففون بعطف العبء عن كاهل زوجاتهم. في حين يبدو أن القيام بالأعمال المنزلية يجعل النساء يشعرن بالإنهاك.

إن تاريخ سويسرا الاجتماعي حيث لم يكن يُسمح للنساء

بالتصويت حتىٰ عام ١٩٧١ يكشف خفايا التوقعات الخاصة بالتوظيف علىٰ السعادة. فبعد عشر سنوات من حصول النساء في سويسرا علىٰ حق الاقتراع، صوّت مواطنو الدولة في استفتاء عما إذا كان يجب تعديل الدستور ليقرر أن النساء تستحق أجراً مساوياً مقابل عمل مساوٍ.

صوتت المناطق المختلفة في سويسرا بشكل مختلف تماماً. ليس من المستغرب أن التقارير أشارت إلىٰ أن فرق الأجور بين الجنسين ضئيلٌ في الولايات السويسرية التي كانت بها نسبة عالية من الأصوات في صالح التعديل الدستوري. ولكن الغريب أن النساء العاملات في المناطق ذات العادات والتقاليد الثابتة - حيث صوّت أغلب الناس ضد مبدأ تكافؤ الأجر - كنّ **أكثر سعادة من النساء العاملات في الولايات الليبرالية.**

كان احتمال أن تبلغ النساء في المجتمعات التقليدية عن وجود تمييز في المعاملة أقل مقارنةً بمواطناتهنّ في المناطق الأكثر تحرراً، وذلك رغم أن رواتبهنّ كانت أقل من رواتب الرجال.

ربما نشأت هذه النتيجة المقلوبة من مقارنات معرفية مختلفة. **فالنساء في المجتمعات المتحررة أقل سعادة ويلاحظن وجود تمييز لأنهن يقارنّ تلقائياً فرصهنّ ورواتبهنّ بكل من حولهم بمن فيهم** الرجال. أما النساء التقليديات فلعلهنّ يبنين هويتهنّ أكثر علىٰ **الأدوار التي تمليها عليهن أنوثتهن، ويقارنّ أنفسهنّ بغيرهنّ من النساء فقط**

عندما يقيمن امتيازهنّ وفرصهنّ"[1].

ربما يفسر هذا النوع من الاختلاف انخفاض سعادة المرأة الأمريكية. فبازدياد حقوق المرأة الأمريكية وفرصها يبدو منطقياً أن أصبحت توقعات النساء في الدول الصناعية أكثر تعقيداً وتفاؤلاً، وأنهن يقيمن الواقع بناءً علىٰ هذه التوقعات. فلو سُئلت ربة منزل في أوائل السبعينيّات عن مدىٰ رضاها عن حياتها لربما فكرت فقط ما إذا كانت الأمور تسير علىٰ ما يرام في منزلها. أما نفس السؤال اليوم فيثير تقييمات لمجالات كثيرة في الحياة.

قد يبدو أن تناقص سعادة النساء أمر محزن. ولكن من قال أن اتساع الوعي يجلب السعادة والرضا؟

***

---

(١) لم يعرف التاريخ تشريعاً أكثر رحمة وإنصافاً للمرأة من الإسلام، وذلك بكثرة تفاصيله التي شملت كل حالة يمكن أن تتواجد فيها المرأة المسلمة تقريباً، فهو معها إذا أرادت أن تحظىٰ بحياتها المنزلية فبين ما لها وما عليها، وكذلك إذا أرادت العمل لحاجة أو إعالة أو في مجال برعت فيه وأتقنته أو في وظيفة ماسة تؤديها للمجتمع، فوضع لكل ذلك ضوابطه وشروطه وحقوقها فيها، وبما لا يقطع عليها إبداعها وعطاءها إذا كانت لديها القدرة والرغبة بما لا يخل بباقي مسؤولياتها أو بيتها وأولادها وزوجها. وذلك تحت غطاء العدل العام في الأجور في الإسلام والذي لا ينظر إلا لتقييم العمل وإنجازه (المترجم).